

محمد فريد أبو حديد

عشرة بن شداد

٤٣

اقرا

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

كان قوامها مثل الفصن الرطيب إذا اهتز في مطانع الربيع ،
 وكان لونها مثل لون الحجر إذا أضأت في كأس من اللوز ، وعيناها
 السوداوان أصيثن في جلاوة وأملها الجليل ينحدر إلى فيه وديع .
 وكان في أذنيها قرطان من الذهب تدلى منهما حبات من ثوب
 المحررين أهداها إليهما أومى مالك من غنيمة غنمها من قافلة
 كانت تهبط إلى أرض الحجر . تلك هي عملة ائمة المدارس
 العباسي مالك بن قراد وكانت عائدة من عرس ابن حاتها في
 هوارن ، تبس ثوباً معصفاً من الكتان يلح في ضوء الشمس
 فاقعاً ، وتضع حول رأسها خماراً من الحرير المصري من صناعة
 (ديبق) يتغير لونه في شعاع الضوء ويأثني فوق وجهها الوضي .
 وكان يأخذ زمام مديها وهي في هودجها شاب أسمر اللون يشبه
 قوامه الرمح الذي في تمينه ، قامته عالية ورأس مرفوع وحذر
 فسيح ، وقد شمر عن ذراعين مفتولتين قويتين . وكانت عيناها

تبصان في لمح خاطف ، وأنه الأفنى يتحدر إلى قم قوى فيه شيء
من الغلظ . وكان يحدو بأراجيز يتغنى بها يمزج فيها بين أنغام
الحرب وأنغام النسيب . وكانت عبلة تسمع حذاءه وهي مطمئنة
إلى أنها في حماية العارس الذي لا يجرو الأعداء على الاقتراب
من ركبته عنقرة عبد شداد .

وسارت الإبل في قطار طويل يتبع أحدها الآخر تخطو
خطواً وثيداً لا تعباً بشيء مما حولها ولا يستحشها شيء من أمامها
ولا من خلفها . وجاء في آخر الركب جمع من الأتباع والعبيد
يسرون مشاة يسوقون الرواحل التي تحمل الزاد والماء ويدفعون
في أعجازها بمصيهم الغليظة حتى لا تنقطع عن القافلة .

وبلغ الركب مورد الماء وكانت تلك آخر مرحلة في السير قبل
العودة إلى منازل عبس في أرض الشربة والعم السعدى . فأوقف
عنقرة بغيره الأول . وقف القطار كله لوقوفه ، وأسرع العبید والأتباع
إلى ما اعتادوه عند النزول فأماخوا الإبل وجعلوها صفوفاً في
ماحية من الوادى ، وأناخ عنقرة بغير عبلة وأزاح الستار عن
نودجها ونظر إليها باسماء ومد إليها يديه ليساعدها على النزول
فردت عليه بابتسامة شكر وقالت وهي تنقر خفيفة :

— لقد أجهلك السير يا عنقرة وأنت تأبى الركوب .

فأسرع عنقرة قائلاً وهو يسندها :

— وكيف يصيبنى الجهد وأنا أحدو بعيرك يا سيدتى ؟

وسارت عبلة إلى ظل شجرة قريبة وقالت وهى تميل إلى
الرمل لتمهد لها مجلساً :

— لم أسمع شيئاً يشبه حذاءك يا عنقرة . لقد أحسست البعير
ينشط لا شادك .

فأجاب عنقرة مسرعاً :

— وكيف لا يطر به إنشادى وهو فى وصفك ؟

فضحكت عبلة ضحكة تشبه غناء الطير ومالت لتجلس ، فأسرع
عنقرة فرمى شملته على الرمل ومدّها لتجلس عليها ثم نظر إليها
نظرة سريعة شملت كل صورتها وأسرع وهو خفيف الحركة
يثب فى خطواته لى يرى سائر من فى القافلة من ذنات عبس
ونسائها ويساعد من تحتاج منهم إلى مساعدة .

ولما فرغ من ذلك نادى العميد وأمر بعضهم أن يذهبوا إلى
الماء ليملاؤا الحوض لسقاية الإبل ، وأمر آخرين منهم أن يصربوا
أخبية النساء عند فم شعب قريب من الماء ، وأمر غير هؤلاء أن

يوقدوا النيران لإعداد الطعام، ثم ذهب إلى ناقة بيضاء فحلب منها في إناء حتى ملأه ووضعه في الظل فوق صخرة عالية ليبرد في الهواء . ومضى بعد ذلك إلى الثر فسقى جواده ثم ركبته ودار حول الماء ليرى هل هناك قوم ينزلون عنده ، حتى إذا اطمأن إلى أنه في مأمن وأن ليس هناك ما يخشاه أوغل بين الكتبان وجعل يجوس خلالها ويتأمل ما على رماله من آثار الأقدام ، وأخفاف الإبل ومخالب الحيوان . ثم عاد يسير سيراً وثيداً وهو يغنى وينقل طرفه في جوانب الأفق حتى اقترب من الماء ، فوثب عن فرسه وألقى زمامه على ظهره ومسح بكمه على ظهره ، وبعثه بيده إلى ناحية من الوادي . وأدرك الجواد ما قصده صاحبه فخمحم وهر رأسه ووثب كالأغزال واطلق إلى جانب الوادي فجعل يقطف من أطراف الأعشاب البصة التي خرجت مع أول الربيع .

واتجه عنقرة بعد ذلك إلى الماء وهو لا يزال يغنى، فوجد العبيد قد فرغوا من سقايتهم ، وسمع صوت ضحكات الغتيات ترن في أقصى الشعب ، فأطل من وراء صخرة فرآهن يتواثنن ويعبت بعضهن بالماء ويتقاذفن به .

ورأى عبلة وهي تلهو بدينهن وتجاوهن، فوقف في ظل الصخرة

بتأمل وجهها وبستمع إلى صوتها وهي تكرر في ضحكها ،
وعادته ذكريات أحلامه التي كان يكتبها في طيات
صدره ولا يجرؤ على أن يصرح بها نفسه ، وأحسن قبضة
حزن أليم إذ تذكر أنه لا يزيد على أن يكون عبد عمها
شداد وأنه ان يستطيع أن يفوز منها ما أكثر من أن يدعوها
فائلا « سيدتي » ، وأن يتلأ لها إماء اللين لكي تشرب منه
وأن يخدمها في رحلاتها ويمد إليها يده ليسندها إذا نزلت من
هودجها . بل إنه لم يكن ليجرؤ على أن يتمسك سمها أمام
أحد من عبس خوف أن يتحدث الناس بأنه يتطلع إليها فيحرمه
أبوها مالك من رؤيتها ، فما كان مالك ايرضى أن يتطاع عبد
مثله الى ابنته الجميلة التي يتنافس على التقرب اليها سادة الشهبان
من كرام الأنساب .

وفيما هو في خيالاته رأى عبلة قد أقبلت حتى وقعت عند
الحوض فمات عليه تترى صورتها ، وجعات تصاح من شعره ، ومن
وضع وشاحها الذي اضطرب في أثناء جريها ولعبها ، فلم يملك
نفسه واندفع من مكانه مسرعا يحوها وقال لها بصوت رقيق .

— عرارة يانعة من عرار الربيع وحق مناة !

فجملت عبلة وصرخت عند ما سمعت صوته، ثم اطمأنت عند ما رآته وقالت ضاحكة :

— لك الويل يا عنزة !

ففضى عنزة قائلا :

— واقحوانه باسمه سقاها المدى !

وأقبل العتيات من آخر الشعب عند ما سمعن صوت عبلة في صراحها، فلما رأين عنزة وهو يحدثها انفجرت منهن ضحكة مرحة وأسرعن اليه يصحن به حتى أحطن به وجعلن يصثن به من كل جانب، ويتواثبن حوله ويمجذبن أطراف ثوبه وكل منهن نتجه اليه بكلمة من فكاهة أو سباب مزاح، إذ تعودن منه وداعة العبد الذي لا ينصب .

وقالت احداهن وهي مروة ابنة تداد وكانت أجراهن عليه :

— إنه جاء يتجسس علينا أيتها العتيات !

فمد يديه نحوها وقال :

— وهل كنت لأحرم نفسي من النظر الى ظباء غريرة

تمرح في خلاء ؟

فصاحت مروة ضاحكة :

— والظباء لا تدري أن الأسد يتربص قريباً منها
فضحكنا وأقبلن عليه وكل منهن تغذفه بكلمة ، وهو يقل
نظره بينهن ضاحكاً حيناً أو متظاهراً بالعيضاً حيناً ، وهن يزدن . .
ضحكاً ويمضين في العبث به .

واقتربت منه فتاة فصاحت .

— وحق مناة لا ندعك حتى تشدد لنا من شعرك !

فصاح الغيتات جميعاً :

— نعم انشدنا يا عنبرة .

وقالت مروة انه شداد :

— والا قطعناك حتى لا ندع منك الا أسنانك اتبع . .

فالتفت عنبرة حوله حتى وقعت عينه على عبلة فقال :

— لن أقول شيئاً حتى تأذن لي سيدتي .

فصاحت الغيتات بعبلة : مري عبدك أن ينتدنا . مري

عبدك يا عبلة أن ينشدنا والا أحطنا بك أت .

فقال عبلة ضاحكة :

— حسبكن أيتها الغيتات خبتاً !

فصاحت بها مروة :

— مريه يا عبلة . مري هذا العبد الذى لا ياتمر إلا بأمرك .

فقال عبلة وهى تظهر بالغيظ :

— ما أخبثك يا عنتره إذ تحرض على هؤلاء !

فقال عنتره : وماذا يفضلك ياسيدتى ؟ إني إن أطيق أن
أكون عبد واحدة منهن . لست أرمى إلا أن تكوينى أنت
سيدتى .

فزاد ضحك الغيتات وأقست عين عبلة تدومين فى صدورهن
فى رفق وصدحت متظاهرة بالنصب :

— قل شعرك يا عنتره حتى تكبد صدورهن . فوحى مناة
أن الغيرة أتا كل قلوبهن كلما سمعن إياك تنشد شعرك لى .

فوثب عنتره فى مرج وجعل ينشد . تغنيا بقطع من شعره ،
والغيتات يضربن أكفهن على وقع إنشاده وعبلة تنظر إلى وجهه
الأسمر الحسن القسما ، وتتأمل حركته الرشيدة رهو يمثل مواقفه
فى القتال حيناً وطعناته ناعداً حيناً ، أو يصف عدو الخيل واضطراب
الحرب ، حتى انتهى إلى النسب فجعل يصف محاسن نملاته ونبل
شيمها وعلو حسبها ، وتغير مظهره عند ذاك فاعترته هزة وارتجفت
نبرات صوته واتجه إلى عبلة كأنه يخاطبها . وهدأت حركته بعد

عنفها ولانت نظراته بعد أن كانت تخطف كالبرق، وفتح الفتيات أعينهن مأخوذات بما كان ينبعث في ثنايا شعره من حرارة، حتى انتهى من الإنشاد وهو بلهت وينظر إلى عبلة في وجد غامر . وهذأت الأصوات لحظة وعبلة تنظر إليه في دهشة، ثم انفجرت صيحة من الفتيات واندفعن نحو عترة يستعلن إنشاده . فانفلت مسرعا من بينهن وذهب إلى فم الشعب حيث ترك فرسه، ودار حول الماء حينئذ ينظر إلى العبيد وهم في شغل من إعداد الخيام وانضاج الطعام ، ثم مضى إلى الكئبان يجوس خلالها وهو غائب في مناجاة شجونه الثائرة .

وذهب الفتيات إلى حيث ضربت الخيام . وأقبلن على من هناك من النساء فحدثتهن بما كن ، وكل منهن ترسل في حديثها كلمة تصورها ما أحست من الغيرة من اتجاه شاعر عبس عبد شداد إلى عبلة ابنة مالك وهو يشد أشعاره كأنه لا يقصد غيرها بالسب . وكانت أشدهن حبت وعنفًا مروءة ابنة شداد، فأرادت أن تغيظ عبلة ابنة عمها مالك فجمعت الفتيات وأخذت تنشد وهن يرددن النشيد مصعقات فقالت :

أما رأيتم عترة يسير سير القسورة

في حلة مُعصفرة ولة مضفّرة
وعمة مكورة

أما سمعتم قوله أما عرقم فعله
ويل له يا ويله ينشد منذ الليلة

عنتر عبد عملة

وتعالى صحكهن بعد ذلك وجعلن يرددن النشيد ويعبثن
بعبله حتى غضبت وذهبت إلى خبائها ، فسن وراها وجعلن
يجذبنها وهي تدافعهن . وفيها هن في ذلك أقبل عنتره عائدا يحمل
قعب اللبن، فلما رأيته ألقن عليه وأحطن به وجعلن يرددن نشيد
مروة . ولكنه مضى هادئا بالقعب حتى قرب من عبله فقال :

— لا عليك يا سيدتي من هؤلاء .

فقال عبله غاضبة :

— حسبك يا عنتره فقد جرأتين على .

فمد يده بالقعب نحوها باسمها وقال :

— لا عليك يا سيدتي . انهن كما تعرفين حقواوات عبس .

فعلا ضحك الفتيات وصاحت به مروة :

— امسك أيها العبد وإلا . . .

ووثب الفتيات إلى الإناء فأخذنه وحملن يشرن منه وعنترة
واقف ينظر إلى عبلة إذ تسير مغضبة إلى خائها .
وسار وقلبه واجف فانتحى مكاناً على كتيب في طرف الخيام
وجعل ينظر إلى الفضاء الذي حوله وهو تأثر الأشجان . وكانت
ضحكات الفتيات ترن في أذنيه من بعيد كأنها أصوات عاصفة
تائرة فما كان عترة عندهن إلا عبداً ، وما كانت عبلة لترضى
أن يعرف صاحباتها أن عترة يتجه بانشاده إليها

٢

قضى عترة ساعات يناجى نفسه في الليل الساجى وكان
مستغرقاً في هواجسه عند ما سمع صوتاً من ورائه يناديه :
— أما إنك لحارس غافل .
فالتفت إلى ورائه مجفلاً فلما رأى ذلك الذى يناديه تبسم وقال :
— لم يكن غيرك ليفعل ذلك أيها الخبيث
وكان هذا أخاه من أمه شيموب الذى لم يكن يفارقه في
رحلاته ويرعاه بعيه أينما كان
فقال شيموب : بئس حارس القوم أنت ! بعد عن منازل

الحرم وتخلو على مثل هذا الكتيب العيد ؟ هل تأمن أن يكون
الذى أتى من ظهرك عدواً ؟

فقال عنترة : صدقت يا شيبوب . ولكن عدوى لا يجرؤ على
أن يقرب منى .

فقال شيبوب : وإنك لمتناجى النجوم كأها تحدثك لقد
يخيل إلى أحيانا أنك تخلو إلى شيطانك .

فقال عنترة : نعم هي النجوم التى أماجها كما تقول . إلى
أنظر إليها فيخيل إلى أها تحدثنى ، فأحيانا تصحك وأحيانا
تبكى وأحيانا تسخر .

فقال شيبوب : وأحيانا تصيح عاضبة بعير شك .

فقال عنترة . نعم تصيح ولكنك لا تستطيع أن تسمعها .

فقال شيبوب : وماذا كانت تقول لك الساعة ؟

فقال عنترة فى حزن : كانت تصيح لى « أياها العبد لم جئت
إلى هذه الأرض » ؟

فقهقه شيبوب وقال : انها إذا لجماء . لقد أتيت إلى الأرض
كما يأتى هذا الناس جميعا . تقذف بهم أمهاتهم إليها .

فقال عنترة : صدقت يا شيبوب إنها أمى التى قذفت بى . إنها

هى التى جاءت بى إلى هذه الأرض لأرعى إبل شداد أولأقضى
سهارى فى نضال أو قتال وكما مرى رجل نظر إلى بمؤخر عينيه
قائلا « هذا عبد شداد ». فإذا جاء الليل أويت إلى مصبى فلا
أكاد أستقر عليه حتى تساورى الموم وتلهب قلبى الأحقاد
فأثب خارجا من ظل بيتى لكى استروح من أعاس الليل الباردة
لعلها تذهب عني حر قلبى .

فقال شيبوب فى خفة : أهذا ما جاء بك إلى هنا .

فقال عنقرة فى حزن : نعم هذا ما جاء بى إلى هنا ؟

فقال شيبوب : حسبت أنك تنتظر موعداً من أحداهن .

إن النساء يعجبن بك يا عنقرة ، ولو كنت أفوز منهن بعشر
أعجاسهن بك لما قضيت ليلة إلا على موعد .

فضحك عنقرة فى فتور وقال : هو طبعك الذى أعرفه .

ولست أحب أن أسبك بمثل ما يسبى الناس به فأقول لك
« أيها العبد » ، ولكنى كلما رأيت خصالك لم أملك إلا أن
أراك عبداً . إنها شيمة العبيد التى فطرت عليها فلا تعرف
من المرأة إلا جسدها .

فضحك شيبوب ضحكة طويلة وقال :

— وماذا تجد أنت فيها غير جسدها ؟ بل ماذا تجد من الرجال ألا أجسادهم ؟ إننى لا أرى منك إلا هذا الجلد الأسود الذى يشبه جلدى ، وخير لك أن تستمع إلى نصحتى وتعتنم فرص أيامك فمن يدرى ؟ من يدرى ماذا يحمل لك الغد يا عنتره ؟ أف لك أيها الرجل ! أتراهن يتواثبن حولك ويمجذبك من أطراف ثوبك ثم لا تحيب هذه بقبلة وهذه بموعد ؟
فقال عنتره فى عبسة :

— لقد علمت يا شيبوب أننى لا أحب أن أعبت ماخزى .
ولست أَرْضَى أن أختلس اللذة اختلاساً . ولغير عندى أن أقتحم بيت الرجل فأنزع امرأته من بين يديه قسراً أو احتطف ابته عنوة وأدعوه إلى نزالى حتى أقتله وأمضى بالمرأة سبية ، هذا خير عندى من أن أختلس قبلة من امرأة أو أخرج فى الليل أتلتصص كما يدب الذئب إلى الشاة . لست فى شيء من ذلك يا شيبوب وما هو إلا طبع العبد يوحى إليك بما أنت أهله .
فقهقه شيبوب قائلاً :

— طبع العبد الذى فى أنا ؟ أتسبى بذلك يا عنتره ؟ كأنى بك أحد هؤلاء الذين يجرون أذيالهم كبرا عند نادى عبس .

فقال عنتره بعد لحظة صمت : صدقت يا شيبوب ولا تؤاخذنى ،
فقد دفعتى الفيض إلى العنف فى قولى .

ومد يده إلى رأس شيبوب وجعل يمسحه مداعباً ، ثم
استمر قائلاً : لا تؤاخذنى بما قلت فإنى أحبك يا ابن
أُمى ، وأرى أملك الرجل الذى تحببى أشد الحب وأخلصه .
وإلك عندى لأكرم من هؤلاء السادة الذين يشمخون بأنوفهم
كبراً . إنك لتطلق ساقيك فتجربى أسرع من الظليم ، وما
أحلى منخريك إذا ما انفتحا كما يفتح منخرا الفرس
الأصيل وهو يعدو . وإنك شجاع القلب طيب النفس لولا
هذا الرعب الذى يمتريك من منظر الدماء . ولكمك
مع ذلك كله تخالفنى فى رأيك . ولا بأس عليك إذا كنت
تخالفنى ، ولكن تعلم أنك تخالفنى .

فتخلص منه شيبوب برفق ونظر نحوه باسماً حتى لمت
أسنانه البيضاء فى ضوء القمر وقال له :

— وإبنى والله لأحبك وأرثى لك من هذه الوسواس التى
تؤرقك . دعنى أيها المسكين أمضى لحاجتى فإنى تركت ورائى
تريداً وخرأً وقت أبحت عنك خوفاً من أن يكون قد أصابك

شر . وأحد مناة إذ لم يصبك شيء إلا مناجاة النجوم .

فتبسم عنقرة وقال : عد إلى خمرك وثر يدك فانتم بهما .
فقال شيبوب : ألا تحب أن تذوق معي شيئاً ؟ لقد علمت
أنك لم تطعم شيئاً منذ الليلة . كل واشرب فوحق مناة ما يخرج
الماء من هذه الحياة إلا بهذين : الطعام والشراب .

فقال عنقرة باسماء : والمرأة أنسيتها ؟

فقال شيبوب ضاحكاً : أما المرأة فلا يخرج الماء بها .
ومن ذا الذي ينوح عليه إذا قتل ؟ ولقد ذكرتني بالمرأة
يا عنقرة . فانك تهجس بها وتخفى في قلبك ما يأبى إلا
أن يذيع .

فالتفت عنقرة إليه في اهتمام وقال :

— وماذا تعنى ؟

فقال شيبوب : لست أعنى إلا ما قلت .
فقال عنقرة : دع الخبث وقل لى ما فى نفسك .
فقال شيبوب : دعنى أذهب إلى ثريدى وخمري .
فنفطر إليه عنقرة فى هدوء وقال : اجلس يا شيبوب وحدثنى

فانى أحب أن أحس وجودك معى . إني أحس فى جوارك شيئاً يشبه ما يحسه الطفل إلى جوار أمه .

فضحك شيبوب وقال : ليت زينة أمك تسمع قولك هذا . إنها تقتل نفسها هما من أجلك وتقطع قلبها من جفائك . فعمم عنبرة كأنه يحدث نفسه :

— أيتها لم تكن أمى . ألا بلنها إذا رأيتها أننى أمقتها . قل لها إنها أشأم أم وهبت الحياة لوليدها . ثم اسألها عن أهلك وعن أبى إذا عرفتهما . أتعرف زينة ذلك القرد الذى انحدرت أنت من صلبه ؟ سلها إذا استطاعت أن تجيبك . اتد طالما سألتها عن أبى وتانى إلا أن تقول لى إنه تداد ، ولكنى أراه ينكرنى ولا يرضى أن يهب لى اسمه .

فضحك شيبوب وقال : أما أنا فقد كان أبى من صميم جلدنى ، وإذا كان قرداً فانى به راض يا عنبرة . ولقد كنت يوماً من الأيام أعيش حراً فى بلادى قبل أن أحل إلى هذه الصحراء المقفرة ، ولا أزال أتذكر أبى وهو عائد بجلد البحر من صيده . كنت أنعم كما ينعم القردة بحريتهم لأننى لم أولد عبداً . ولست أحب أن يكون لى أب سوى القرد الذى جاء بى . وأما أنت فاطلب من

شئت من الآباء ودعنى وشائى.

وهم أن يمضى فى سبيله ولكن عنتره جذبه إليه فأجلسه
فصاح شيبوب قائلاً :

- أما إلك لفظ عنيف إذ تجذبني هكذا فتكاد تدق عظامي .
ثم لا تزال تحمل عليّ وتعنفني .

فقال عنتره بأساً :

- صدقت يا شيبوب فى قولك فانى الليلة سيء النفس وقلبي
ممتلئ حقدآ . ولكنى لا أجد فى هذا الناس كله من بنفس
عنى سواك إنك الرجل الذى أثق فى عطفه اذا تحدثت اليه ، وأمن
بجانه اذا انصرف عني ، وأطمع فى عفوه إذا أخطأت . أنت
شريكى فى غزرائى وريثتى فى منزلى ، وبك أشد ظهري
وبعينك الحادة أبصر ما خفى علي . لحدثني واصدقني فحنن فى
هذا الحى وحيدان لا يعرف أحداً إلا أخاه . ولست نجد
يا شيبوب فى هذه الأرض من هو أحنى عليك منى ولا من يعرف
قدرك مثلاً أعرف لك قدرك .

فوقعت هذه الكلمات موقعها من شيبوب فعدل عن عبه
وصمت حيناً ثم قال :

— لست أود أن أبعث إلى نفسك ما لا تحب يا عنتره .
فوق الآلهة جميعاً إن ما يرضيك أحب الى مما يرضيني . وقد
كنت لا أعرف لى صاحباً حتى ولدت يا عنتره فوجدت فيك
رفيق لى ، ثم كبرت فوجدت فيك أملاً جديداً ، ولما بلغت
مبلغ الرجال وصرت فارس عبس أصبحت عدتى وملاذى .
فأنا بك مباه معجب أحس أن ما تبني من المجد هو مجدى وأن
ما تنال من السعد هو سعدى . ولست أمانى أنك ابن أمى فإننى
معك كما يسير ائمان فى مفازة لا نجاة لهما إلا بأن يبقيا معاً .
ولهذا كنت فى صحى لك ألتس أخف الأقوال عليك فلا
أظهر لك رأياً إلا فى قول عابث لعله يقع من نفسك وقعاً ليناً .
واسكنى أظن أن أمرك قد صار الى عقدة لا ينغى لك ولا لى
أن تغفل عن حايها .

وعند ذلك سمع صوت غناء ينبعث من ناحية الخيام يحمله
السيم متدفقاً متموجاً كأنه صوت عرائس الماء وهى تسبح فوق
بحر مضطرب .

فقال عنتره يقطع حديث أحبه :

— أما تسمع هذا الصوت يا شيدوب ؟

فقال تيبوب : ليس لهؤلاء إلا العناء أو البكاء .

فقال عنقرة في حزن : إنه صوتها . هو صوت عبلة . وأحس أنه وقع في أبعد شعاب قلبى . إن لكل نعمة منه وقعاً يسرى أثره فى عروقى ، لا بل إلى أجد فيه حساً لا أستطيع أن أضفه بهذا اللفظ الذى اعتدنا أن نصف به الحسب من حسنا .

فصحك شيموب قائلاً : إنك تبأبى إلا أن تقول الشعر فى كل ما تنطق به عنها . إننى أرحمك ولا أملك أحياناً إلا أن نحب منك .

فقال عنقرة : وأنى لك أن تدرك ما أحسه وأنت لم تقاس مثل حبى ؟

فقال تيبوب : ومالى والحب يا عنقرة ؟ إن النساء بعضهن من بهضر . فما الذى يحملنى على أن أرى فى واحدة ما لا أراه فى سواها ؟ كلهن يرقص ويغنى ويصحك ويثرثر ويأكل ويشرب . ولا فرق بين واحدة وأخرى إلا أن يكون أنفها أطول أو أقصر أو أن يكون فمها أوسع أو أضيق أو أن تكون إحداهن وطعام الأهداب والأخرى عشاء .

وسكت الغناء عند ذلك ، فقال عنقرة ضاحكاً :

— امض يا شيبوب إذا شئت في حديثك . إنه يقع على معنى
وقوع الندى على العشب الأخضر . إن كنت فيه خبيثاً . تكلم
وحدثني عن نفسك وعن نفسي . ماذا كنت تقول لي آنفاً ؟
أكنت تقول : إن أمرى قد آل الى عقدة لا بد أن محال
في حلها ؟ فما تلك العقدة التي تتحدث عنها ؟
فقال شيبوب جاداً :

— أنت تعذب نفسك بهذا اليوم الذي يلكمها . إياك ترى
عملة بعين غطى الحب عليها وأحشى عليك عاقبه هذا اليوم .

فقال عترة ساخراً : وما نخشى على ؟
فقال شيبوب : أخشى عليك غصب أهلها . أحشى عليك
أماها مالكا وأخاها عمراً فهما لا يصبران لك حماً . عرفت ذلك
ولسته وسمعته ، ولست أكذبك انى أحياناً أتدسس بين ابنتي
لكي أسمع الأحاديث عنك .

لقد تحدث الناس عن حرك امثلة وأنت تحسب أنك
تحميه . وما اجتمع قوم في ناد إلا ذكروك ودكروها في همس ،
وقالوا إنك لا تقول الشعر إلا فيها . ولم أكن هازلاً منذ الليلة
وأنا أقول لك إن سرّك يأبى إلا أن يذيع . إنهم يتحدّثون

عن أشعارك حتى بلغت مالكا وعمراً . ولست أنكر عليك أمك
مغرور في تلك البسمات التي تراها من عبلة إذا حدثتها . فهي
لا ترى فيك الا عبداً مطرباً .

فتجرك عنبرة في غيظ وقال في صوت أجش :
بل تكذب يا شيبوب ويكذب من قالها .
فقال شيبوب متردداً :

وانهم ليقولون ما هو أقذع من ذلك في أمك .
فقال عنبرة في صيحة مكتومة :

لا يخفى على ذلك وقد سمعته بأذى . ولست أنكر أن هذا هو
الذي يدعوني إلى أن أقسو على هذه الأم المسكينة وأسها كما
فعلت الليلة . فكما ضاق صدري لم أجد متنفساً من ضيقى إلا
بأن أقسو عليها .

فقال شيبوب هادئاً :

— وليس هذا كل ما أخشى . إننى أشق عليك من عبلة
يا عنبرة .

فصاح عنبرة : حسبك فإنك تكذب أو لقد خدعك رأيك

فقال شيبوب في عناد :

— لا بل أنت الذى يخذله رأيه ، فلا رأى لمن أحب
يا عنتره . إنك تحبها وهذا يحملك على خداع نفسك ورؤية غير
ما تبصر . لن تكون عبلة زوجة لك ، وما هى مالى ينبغى لك
أن تمنى نفسك بزواجها .

وكاد شيبوب يعضى فى حديثه لولا أن سمع أخاه يغتم بلفظ
لم يتبينه فسكت حيناً ثم اتجه إليه سائلاً : أقلت شيئاً يا عنتره ؟
فلم يجب عنتره بل مضى فى غغمته حيناً ثم نطق ببعض
أبيات من الشعر جمل يمد بها صوته فى رفق ورقة حتى انتهى
من إنشادها واتجه إلى أخيه وقال وهو يتنفس كأنه قد أراح
عن صدره ثقلاً :

— إنتى أعذرك يا شيبوب فلست تقدر على أن تنظر بعينى
ولا أن نحس بقلبي . وقد تكون أسعد حفظاً منى ولسكى لا
أرضى أن أستبدل قلبك بقلبي .

إنتى ساخط على هؤلاء جميعاً ولست أخشى أن يكونوا كلهم
على غضابا . ولست أبالى إذا هم علموا حبي فلقد كنت أكتبه
خوفاً على عبلة أن تحجب عنى . والسكى لا أجد فى الحياة أملاً
إلا أن أحبها ، ولولا هذا الأمل ما بقيت يوماً فى حياتى . لست

أملك قلبي حتى أصرفه عنها ، فإني إذا رأيتها أضاعت لي الآفاق
وإن كانت مظلمة ، وإذا تسمت ريحها أحسست ديب السعادة
وإن كان الشقاء يكتسفي . وإذا حدثتها عرفت الهجة وإن
كنت غارقاً في همومي . وإذا سمعت صوتها وقع عندي موقع
الباسم على القرحة الدامية . وإني لأرق للنساء من أهلها ،
وأخوض الحروب لأنني أحى قومها ، وأطب الأمور لا أطلب منه
إلا أن فوز ييسره من رضائه ، وأبذل ما يحرص عليه الرجال
لأنني لا أعرف شيئاً أحرص عليه غير محبتها . فهي عندي
عاية حياتي .

وعد ذلك قد صوت الغناء لحدة وحده نسيم كما كان يحمله
من قبل متمرداً متدفقاً فوق عنقته :
— سمع يا شيبوب فإنها تغني .

وأصاخ بسمعه لحظات ثم قام خفياً وقال مستهجاً :

— ألا تحب أن تقرب من مكانها لتسمع ؟

ثم حدث أخاه من يده واتجيزا نحو الخيام فلما اقتربا حتى
استطاعا تين اللفظ وقف عنده فجأة وقال في صراحة مكتومة :
— أما تسمع يا شيبوب ؟ إنها تغني بشعري . إنها تغني بشعري .

ثم اندفع نحو الخيام وكان الفتيات والنساء وسطها يجلسن في حلقة حول النار فوقف في الظلام يسمع وذهب شيبوب نحو حيمته وفي قلبه قبضة يأس من ضلال أخيه .

٣

كان الصباح يضيء بأوار الشمس الدسمة في ذلك الربيع ، وكانت السحب تزين السماء بقطع بيضاء كأنها تقطيع من وعول نجد العصاة ، وكانت الأرض لا تزال رطبة من أثر المطر ، والعرار يسم بنوره الأبيض بين حشائش لمرج الأخضر ، وقطعان الابل تسرح هادئة تحت نظر رعاتها . والنسيم الوديع يهب على وجه عنترة وهو واقف على ظهر فرسه الذي يعدو تحته بغير رسن . وكان مقياً في ذلك المرح مع سرح سيده شداد منتهزاً تلك الأيام ليمتع نفسه بالانطلاق في صفاء البادية الباسمة قبل أن يقبل الصيف فيقظه ويعسوح العشب ويذبل الزهر . وطالت غيبته عن الحى وكان يمتنى نفسه أن يمود إليه بعد حين فيرى عبلة وينعم بحديثها ويتنفس من النسيم الذي تنفّس منه قبل أن يخرج إلى منتجعات الكلاء إذا حى حر الصيف .

ولكن زائراً أتى إليه في ذلك اليوم فقطع عليه متعته ، فما
 علت الشمس حتى رأى فارساً يسرع مقبلاً نحوه ، وتبينه بعد
 قليل فإذا هو أخوه شيبوب . وكان عنتره لا يتوقع مجيئه فأسرع
 ليلقاه وهو واقف على ظهر فرسه كما كان يحب دائماً أن يركب
 إذ يرعى الإبل في البر المسيح .

ولما صار قريباً منه ناداه في لهفة :

— مرحباً بك يا شيبوب !

ثم وثب عن ظهر العرس قائلاً :

— خيراً ما جاء بك !

فقال شيبوب ضاحكاً :

— إنما جئت لأراك .

فنظر إليه عنتره في شك وقال :

— إن وراءك لأمرأ .

فقال شيبوب باسمًا .

— انك لتحسن ما في مسمى قبل أن أنطق . صدقت

فقد جئت إليك بمحدث .

فانتظره عنتره أن يبدأ ومضى شيبوب قائلاً :

— كان الحى بالأمس يموج بفردان عيس .

فقال عنتره فى صيحة مكتومة :

— وماذا دهمى الحى ؟

فقال شيبوب مبادراً :

— لم يكن شىء سوى وليمة . وليمة مالك لعمارة بن زياد .

فصاح عنتره فى صوت مخوق .

— وما بال عمارة ويملك !

فقال شيبوب فى هدوء : إنه خطب عملة !

وكان شيبوب ألقم أخاه حجراً بهذه الكلمة فلم ينطق بمجواب بل أطرق ساهماً وجعل يخرق الأرض برمحه . فقال له شيبوب :

— كنت من قبل أحدثك فى خفة وفكاهة لأننى أعرف

كبرياءك ولا أحب أن أثيرها . ولكنى اليوم لا أرى مجازاً

خلقة ولا فكاهة . وأحب أن أحدثك حديثاً يقطر جداً .

فنظر إليه عنتره وهو يكظم حنقه واستمر شيبوب فقال :

— هذا مالك بن قراد يختار زوجاً لابنته ، وهو من هؤلاء

العرب الذين لا مفر لهم من أن ينظروا إلى الناس بأعينهم . وقد

أردت أن أسمى إليك هذا النأ قبل غيرى حتى لا تركب
الشطط لو بلغك من سوى .

فصاح عنقرة :

— وأى شطط تعنى ؟

فقال تيبوب : لقد عرفت أنك سوف تكره هذا النأ وأنتك
سوف تحقد وسوف تتور . ولكى أعيد عليك أنك تخدع
نفسك يا ابن امى . فهل لك أن تفكر فى أمرك وتحكم عقلك ؟
فأطرق عنقرة حيناً وهو حزين ثم قال :

— أنت تريد أن أحكم عقلى وأن أفكر فى أمرى . تريد أن
أعرف ابنى عنقرة العبد الذى لا يليق به أن يتطلع إلى عبلة .
فقل تيبوب فى عطف : إنك بغير شك فارس عبس ، وأنت
جدير بأن تكون من خير سادتها . ولكن قضاءك قد ظلمك
واست بأول رجل ظلمته الحياة .

فانتعض عنقرة وقال :

— وما نى أَرْضى بظلم الحياة يا تيبوب ؟ وما الذى يقيدنى
حتى أقیم على الحسف وأَرْضى بأن أبقى عبداً فى عبس ؟ ما الذى
يحمانى على أن أحكم عقلك أنت فى أمرى ؟ ليس هذا حكم عقلى

أنا يا شيبوب ، بل هو حكمك . أما أنا فاني لا أرضى لنفسي
أن أكون هناك .

فقال شيبوب هادئاً :

— وماذا تملك يا أخى ؟ هل تملك أن تحجر على مالك حتى
لا يزوج ابنته بمن شاء ؟

فصاح عنتره :

— لست أريد ذلك يا شيبوب ، ولكنى أحب عبلة ولا أستطيع
أن أراها زوجاً لغيري .

فقال شيبوب : إذن فحدثني ماذا أنت فاعل وقد علمت نبأ
خطبتها .

فقال عنتره في حرارة : لست أدري بم أحدثك يا شيبوب .
فأنت تذكرني بكل آلامى وكل شقائى . أعلم أبى فى نظر هؤلاء لا
أريد على أن أكون عبداً ، ولا أستطيع أن أعو صورتي التى تقع
فى عيونهم وفى قلوبهم . ولكنى أملك شيئاً واحداً . أملك نفسى
التي لا ترضى . وسأكون فى المكان الذى أَرْضاه وإن كان ذلك
قسراً . إنك تحدثني عن مالك . فلم لا تحدثني عن عبلة يا شيبوب ؟
إنك لم تسمع نجواها كما سمعتها ، ولم تعرف حقيقة نفسها كما

عرقها . فلا تواجهني بهؤلاء . فلست أعرف منهم أحداً وإنما أحب
عبلة وأعرفها .

فقال شيبوب في عناد :

— أنحسب مالكا يزوج ابنته لك ويدع عمارة من زيادة ؟
ولو كان أبو عبلة غير مالك أنحسب أنه يفعل مثل هذا ؟ إنك
لن تجد غيري يحدثك بمثل قولي ولكني لا أحب أن أكرم عنك
نأمة من نفسي .

وكان عذرة يحاول أن يمسك غضبه . ولمح شيبوب علامات
ذلك الصراع بينه وبين نفسه فقال له في عطف :

— لا تحنق على لما أقول يا أخى . فوحيق منة أننى أشد
حرصاً عليك منى على نفسي . ولو كان الأمر لى اعرفت أن أقدرك
قدرك فأت أكرم من كل هؤلاء وأنتهم نفساً . وإليك لحى
حمام . سيد فرسانهم وأنت أجل عندى من أحسنهم .

فقال عذرة وقد ألامه عطف أخيه :

— لست أشك فى مودتك وحرصك على خيرى . ولقد
صدقت إذ قلت إن مالكا لا يلام على رضاه بعمارة ، ولو كنت
مكانه لما رضيت إلا بما يرضى . ولكن ما بال قلبى وعبلة ؟

إننى أحبها ، ولا أقدر أن أحيا لغيرها . ولو ذهبت لغيرى لكان
 فى ذلك قتلى . فليس لى إلا أن أركب الوعر وأن أقدم على
 كل خطر ، فليس فى كل ذلك إلا اللوت وهو ما ينتظرنى .
 وصمت لحظة ثم قال :

— وما بال سداد يابى على كرامتى ؟ لقد علمت أنه أبى .
 قالت زبيبة ذلك وهى صادقة لم أعتد منها كذبا . فوحق مناد
 لأعودن إليها فأسألها . فاذا قالت ذلك فانى عائد إليه لأنتصف
 منه وإن كان فى ذلك هلاكى .

فصمت شيبوب لحظة ثم قال :

— أو تحسب أنه ينصفك ؟

فصاح عنترة :

— اتن لم ينصفنى وأما ولده لكان لى ظمأ .

ثم أخذ ينكت الرمل برمحه فى حلق .

فقال شيبوب : أراك لا تدع هذا الوهم وإن كلمك ركوب
 كل وعر .

فقال عنترة فى قسوة : إذا كنت بين قوم لا ينظر كل
 منهم إلا إلى نفسه فلا حرج على أن أنظر إلى نفسى .

إن وهؤلاء جميعاً يدعوننى إذا اشتدت حولهم الكروب ،
ويلقون إلى بالسيف لأذب به عنهم وأحمى حرمهم . فلا حاربهم
هذا السيف انتصاهم انفسى . لأحارب شداً إذا ضن على
ناسمى ، ولأحارب مالكا إذا وقف بينى وبين حبي ، ولأحارب
عمارة إذا تجرأ على أن يسلبنى حياتى . لأحارب لأحارب
لأحارب ! وإلا كنت فى الحق جديراً بأن أكون عبداً .

هلم يا شيبوب إلى الحى فالى لا أطيق المقام هنا .
ووثب على ظهر فرسه ولم يستطع شيبوب أن يرده عن
عزمه فقد انطلق به جواده الأبحر وأثار الغبار وراءه فلم يجد
شيبوب بداً من أن يركب ويلحق به عائداً إلى منازل عبس .

٤

دخل عنترة إلى بيت أمه أرل شىء بعد عودته إلى الحلة ،
وكانت زينة منصرفة إلى غزلها وهى ساهمه . فلما رأت عنترة
داخلاً وثبت قائمة وقالت له وهى تفتح له ذراعها :

— مرحباً بك يا ولدى . متى جئت ؟

فلم يجب عنترة بل ذهب إلى جاب من الخباء فرمى رجمه

وسيفه وجلس على فروة والحزن يبدو في معالم وجهه .
فقال له زبيبة :

— إنك حزين يا ولدى ، ولعلى أعرف سبب حزنك . بل
أعلى قد عرفت سبب عودتك التى لم أكن أتوقعها .
فمطر عنتره إليها فأتراً فى حنق وقال :

— وماذا يجدينى أن أحزن أو أن تعرفى سبب حزنى .
لقد كان أولى بك لو عرفت أنك أنت السبب فى شقائى .
فتحرك وجه الأم وفارت الدموع فى عينيها وقالت :

— أرى ولدى الحبيب قد اك نفسى . ولو استطعت أن
أذهب عنك الحزن بمقد عيني لكان أحب شىء لى أن أفقد
عيني . ولو قدرت على أنذل حياتى لكى أهب لك السعادة
لأذاها راصية .

فخضع عنتره وأطرق حينه ثم قال لها :
لن يجدينى ذلك شيئاً أيتها الأم التى جئت على . ولقد جئت
إليك لكى أسألك مرة أخرى أن تصدقيني حديثك .
فقال زبيبة :

— سلقى ما بدا لك يا ولدى فأما لا أحب أن أكذبك .

فقال عنقرة في مرارة :

— لست أحتمل بعد اليوم أن أعبس في دنيا تحيط بي فيها
هذه الأكاذيب ولا أفرقها عني . إذن فتمسك لهذا السيف الذي
أحارب به أعداء عبس لأنه يكون سيمًا أجيرًا .

فقال زبيبة هادئة :

لقد عرفت يا عنقرة أني لا أكذب ، ولو أردت أن أكذب
على الناس ما كذبت على وئدي . أنحسب أنني أعرف أمرًا
أخفيه عنك ؟ لقد طالما أخبرتك بما سمعت من عبته ومن أمها
وما سمعت من نساء عبس ومن امرأة أبيك سمية .

فصاح بها عنقرة في وحشية :

— تقولين امرأة أبي ؟ أما هي امرأة شداد ؟

فقال زبيبة : هي سمية امرأة أبيك شداد .

فصح عنقرة :

إنك تكذبين يا امرأة .

فتمزعت زبيبة من قول ابنياء ورمت بالمعزل من يده في غضبة
مكتومة ، وبسطت يديها نحو وعيناها معلقتان في وجهه ،
وفات :

— أى عنقرة ولدى ! إني لا أزال أذكرك طفلاً وأنت نجبو
مرحاً ضاحكاً تعبت بالكلاب والحملان . وأذكرك صبيّاً تهبذ
فصيل الماقة كأنت قط تداعب فأراً . وأذكرك فتى
تهز الحربة كما كان خالك وجدك يهزانهما . نعم خالك وجدك
أخى وأبى . هؤلاء الذين عرفوني وعرفتهم ولم يقولوا لى يوماً
كما تقول لى « يا امرأة » . فاذا ما كبرت يا ولدى وصرت شاباً
فارساً أراك تبعد عني وتطرحني وتخططنى هكذا « يا امرأة » .
ثم وضعت رأسها بين كفيها وأخذت تبكي .

فلان عنقرة وقال يستعطينا :

— إن قلبي يتمزق والغيظ ينفجر مني .

فقات زبيبة :

— إيلك يا عنقرة تدمي قلبي إذ أراك تنظر إليّ كما ينظر
هؤلاء ، كما ينظر أبوك وأعمامك وأبناء أعمامك إذ يتولون لى
« قومي يا زبيبة إلى هذا القعب وولايه نبذ أو تومي إلى هذه
الشاة فاحلبها » وما كان ينبغي لك أن تكون منهم فإست
زبيبة الأمأ أمام نفسي . إني أنا الحرة الحبشية (تانا) ابنة
(ميجو) ولن أكون سوى الحرة (تانا) ابنة ميجو .

وكان عنتره يسمع قولها مضطرباً ويزأر زفيراً مكتوماً ، ثم قال
في شبه صبيحة :

— ألسنت أنت التي أتيت بي إلى الحياة لكي يصفعني كل
من يلتاقى بقوله « يان الزنا ؟ » وحق مناة لو كنت حرة
وما كاد يتم قوله حتى صاحت زبيبة في حلق :

— ويلك يا عنتره ! لا تنطق بهذا القول أمامي . إني أمقت
قومك وما يقولون وأمقت آلهتهم التي يقسمون بها . لا تنطق
بهذا القسم أمامي فإنني عرفت ديناً غير هذا الدين ، واسماً أحب
إلى من هذا الاسم ، ولو خيرت بين الحياة والمسيح ما أحببت
الحياة .

ففتح عنتره عينيه في دهشة ثم صاح :
— وما هذا المسيح الذي تهرفين به ؟ أما منعك من أن تأتي
بالولد انتقذي به في المأهنة بين هؤلاء الذين تقولين أنك تمقتيهم ؟
إنني أظن أعداءهم وأعف عن حرمهم وأتكبر أن أخاصم أحداً
في اقتسام غنائمهم ، وهم يتقاتلون عليها ، ومع ذلك فأنا عندم العبد
ابن زبيبة .

ثم انتقد غضبه وابتلت لسانه من زمامه فقال في وحشية :

— أمسكى أيتها المرأة دموعك التي تسحر قلبي . ودعيني
وما أريد فأجيبى سؤالى . أنا ابن شداد حقاً ؟
وإني أعيد قسمى بمناء لكى املأ قلبك غيظاً وحقداً وغماً
كما أتيت لى إلى حياة لا أجد فيها إلا غيظاً وحقداً وغماً .
أقسم بمناء لكى أجرك الفصص أن لم تصدقينى لأضمن هذا
السيف فى قلبك ثم أديره بعد ذلك إلى قلبى . أنا ابن شداد حقاً ؟
وكانت ربيعة تسمع قوله وهى مكبة على يديها تنكى ، ثم قالت
وهى تنشج :

أما قلت لك إنك ابنه ؟ أما قلت لك أنت ابن شداد ؟ أما
أنسنت لك بالمسيح يوماً أنك من صلبه . إنك ابن شداد ويكذب
من يقول غيرها .

فصاح عتبة مرحراً :

— ألا كفى عن ذكر اسمه فانه أتمد الأسماء كراهة عندى .
كفى عه فانك كلما ذكرت اسمه أحسست مثل وقع الشياط على
طهرى . وأقسم عمة لئن كان أبى لأحمله على أن ينسبى إلى «سه» ،
وإلا كان لى معه شأن تتحدث به قبائل العرب فى واديهها .
وسأضرب فى الأرض حيث تقذف نى ، وسأصارع الأسود

وأنتزع منها فرائسها ، وساقطع السبيل على كل عابر وأسلم
الأموال من كل مالك ، ولن أستقر حتى ألقى منيتي كما يلقاها
الكلب العقور أو الهرم النائر .

فتخاذلت زبينة ومدت يديها في نضرع وقالت :
— إنه أبوك يا ولدي ، وقد طالما حدثتك بقصته وأنت تسكر
ولا تصدق . إنني أذكر يوم رأيته كأنه كان بالأمس القريب
فاسمع حديثي وصدقني : كنت مع الركب أنا ومن معي من نساء
وأطفال لا نكاد نرى ما أمامنا من البكاء . فقد جئنا إلى هذه
الأرض مع قوم خطفونا كما تخطف الأنعام . وكاوا يلقون إلينا
في الطريق بقطع من العظام وفصلات من الطعام فلا نجد لها
شهوة والجوع يقرض أحشاءنا ، حتى كاد الموت يأتي علينا .
وكانت جثث الموتى تلقى على جانب الطريق كما تلقى جيف الكلاب
ولا نجد لأنفسنا حيلة إلا البكاء .

وكان أحوك شيبوب لا يزال طفلا ، وكان جرير ابني
لا يزيد على عشر سنوات . أواه ! إنني لا أملك نفسي كلما
تذكرت كيف كانت رجلاه الصغيرتان تدميان من السير فوق
الحجارة ونحن نسير في تلك الصحراء المهلكة لانعرف لها سبيلا .

وأخيراً هبط علينا أبوك شداد في جماعة من عبس جاءوا يسلبوا
ركب الغنائة الأندال الذين جاءوا بنا. وكنا نحن الركب والغنيمة.
ولكن شداداً كان بنا براً كريماً وكان في حفيلاً زبظلي رحياً.
فاختارني فكنت له أمة وكان ابنائى له عبيدين . ولست أومه
على ذاك فتلك عادة هؤلاء العرب قومك يا عترة .

فنظر إليها عترة وقد هدأت ثأرته وقال ساحراً :

— أحم حقاً قومي ؟

فقات زبسة : — هم قومك يا ولدى ولا أكدمك سبيئاً .

إني أرضى بالرق لأنني لا أرى لي في الحياة أرباً سوى أن
أراكم أمانى .

وسمع عترة قوله شاخصاً ببصره إليها حتى إذا مفرغت دنت
بديها واقترمت منه فبضعت يمينها على رأسه تمسحه في عطف
وتنهفت بالبكاء . فخصع عترة لها ووشت من عييه دعة . در
إليها فمسحه . ثم تخاض معها برفق وقول بصوت ضعيف :

— لا عليك يا أمة فبني قسوت عليك . وتقد عطفت قلبي

على هذا الرجل بعد وصفك فباني أحسن له رقة . وسأعصى بإيه

لأحدنه في أمرى وأمرى . فليست أرضى أن أكون من صلبه ثم
أتى في بنى عبس رقيقاً .

ثم وثب واقفاً ووقفت أمه تتعلق به ، وقالت :

— لا تفعل يا ولدى ، لا تفعل ذلك أبداً . إنه لن يجيبك إلا

بما يجيب به العربى عبده . إنك عبده لأنك منى . تريت في
الأمر حتى يقضى الله قضاءه ولا تياس من رحمته . فإني أحس
ألك مدرك ما تبغى .

فقال عنتره في صرامة :

— ذريني أذهب إليه فإني لن أثير قلبه . سوف أخضع له في

الحديث لعل قلبه يلين لى . ولست آيساً منه فإني ألع فيه أحياناً
رقة ومحبة .

فتعلقت به زبده مرة أخرى وقالت :

— إنه لن يرصى خوفاً من قومك أن يعيروه بك .

فقال عنتره في عناد :

— لن أقعد عن ذلك وإن كلفني حياتى . فإما ان أكون

ابنه وإما أن أهيم على وجهى في الأرض الواسعة ابتغاء حريتى .

فقال زيبه : تريث يا ولدى بحق بماذا أقسم عليك
حتى تطيعنى ؟

فنظر عنقرة إلى وجه أمه جامداً وقال :

— لن أنفك أطلب حتى حتى أبلمه يا أمى . ولن أنحمل هذه
الحياة وإن كان فى ذلك تحطيم قلبك وقلبى .

ثم تخاذل وجلس على حجر عند مدخل البيت ووضع رأسه
بين كفيه وعاب فى صمته حيناً . وكان يردد فى إطراره أنشأماً
خامة ويهتز فى أثناء ذلك اهتزازاً شديداً .

فاقتربت أمه منه وجعلت تمسح رأسه بيدها وهى صامته
حزينة ، حتى مضت ساعة ثم رفع رأسه وجعل يتغنى بأهريج
من شعره وأمّه تنظر إليه فى رقة وتستمع إلى غناؤه حتى انتهى
من إنشاده فقالت له :

— إذن فأنت مقيم هاهنا . أنتحمل الحياة فى أرض لا تقيم
عبلة فيها ؟

فصاح عنقرة : بل لا أتردد فى تحطيم هذا القلب الذى يتعلق بها
وأنى جدوى فى بقائى هاهنا . لست إلا عبداً ؟ اننى عند ذلك

لا أزيد على أن أكون مثل الكلب الذى يتطلع إلى النجم
وينبجه وهو أذل الأحياء .

قالت زبيبة ضارعة :

— أما تترقى بنفسك يا ولدى ؟

منظر إليها عنقرة نظرة سريعة ثم ذهب عنها مسرعاً يدمدم
في وحشية :

— سوف أذهب لأزنع عن نفسى عارها .

ولم يلبث أن غاب بين البيوت وأهوت زبيبة على الأرض
متهالكة تنظر في أعقابه والدمع يملأ عينها .

٥

كان شداد بن قراد فى خيمته يعفى أغفائه بعد الغداء عند ما
ذهب عنقرة يطلب أن يراه . وكانت امرأته سمية جالسة مع
مروءة ابنة شداد تتحدثان وهما تغزلان الصوف بعد أن فرغت من
خدمة الشيخ الصارم . فلما أقبل عنقرة نظرت إليه سمية
وقالت فى دهشة :

— هذا عنقرة هنا ؟

فقطرت إليه مروة وقالت هامة :

— لقد طالت غيبته عن عبلة فخره شوقه .

فقات سمية عابسة :

— صه يا مروة ! أما تدعين عنفك عليه ؟ أما رأيت كيف

قسا عليه أبوك من أجل مثل هذه الكلمة ؟

واقترب عنترة منهما وحلس وهو صامت فقالت له سمية :

— مرحبا بك يا عنترة ! لقد طالت غيبتك .

فقال عنترة في هدوء : جئت لأرى سيدى . أهو هنا ؟

فقلت سمية ناظرة إلى الخيمة .

— إنه هناك على عادته فى مثل هذه الساعة . فهل تنظروه ؟

فقات مروة فى خبث وهى مستمرة فى غرلها :

— لقد مهر بالأمس فى دار عمى مالك وأظنه لا يصحو اليوم

إلا مساء .

فقال عنترة ناظراً إليها : وأنت أما كنت فى دار عمك ؟ أما

كنتم جميعاً فى دار مالك ؟ أما كنتم جميعاً تحبون آل زياد ؟

فقات مروة : ولو كنت هما لما فانتك أن تكون معنا .

فقطرت إليها سمية خمية فى شىء من الحق ، أجاها عنترة :

— لقد تعودت يا مروة أن أذهب حيث تذهبين أنت
وسيدتي هذه سمية . أليس هذا واجب عبد شداد ؟
فضحكت مروة وقالت ممعنة في خبثها :

— كما تعودت أن تحمل اللبن إلى عبلة كل صباح لتشرب
منه أول الناس .

فصاحت بها سمية قائلة :

— أما تمسكين عن هذك أيتها الحمقاء ؟
فقال عنبرة هادئاً :

— لست أحمل اللبن لعبلة وحدها . إنما أنا عندكم يا مروة
فأنا لا أصنع إلا ما يجب على العبد أن يصنع .
فلم تبال مروة غضب سمية وقالت ضاحكة :

— أما قلت لنا عند الماء إنك عبد عبلة ؟ أما انت عدعمة .
فقال عنبرة : اذكر ذلك يا مروة فهل أغضبك قولي ؟ إنك
اننة تدداد ولا حاجة لي أن أقول للناس إنك سيدتي ، فهم يعرفون
انني عبد شداد .

فقالت سمية في غضب : الا حسبك يا مروة . إنك تعرفين

أن عنترة فارسنا وحامينا ، وهو ابن زبيبة التي تحبك وتحنو عليك .

فقال عنترة ياسمًا : ذريها تعبت في يا سيدتي . إنها تعرف مودتي لها وحرصى على رضاها ، وإن أقسى كلماتها عندى أحب من حديث سواها .

فقات مروة في عناد . لو سمعتك عبلة لأغصها ذلك . وأنت لا تجرؤ على مثل هذا القول لو كانت عبلة تسمع . ألا تذكر الشعر الذى أنشدته ؟

فقال عنترة في تنىء من الارتباك :

— إننى أتغنى به صياحاً ومساء .

فبادرت مروة ضاحكة وقالت :

— ولكبك لا تنشد إلا إذا كانت عبلة حاضرة .

فنظر إليها عنترة وقال في شىء من الحنق :

— لعلك تريدن أن تقولى اننى أحبها . ألا فاعلمى يا مروة

أننى أحبها . واننى أقول شعرى لها . ولقد كنت أكمكف من شجبونى واكتم نائرة وجدى حذراً أن يتحدث أهل الفضول عنها . ولكنى اليوم لا أبالى . فما هو ذا عمارة يخطبها وأنتم

جميعاً تذهبون إلى وليمته لتخدموا أهله ، وأنا أرى إبل شداد في البر وحدي . فلتحدثني ولتحدث فتيات عبس جميعا اننى أحبا ، وليعرف عمارة بن زياد أن عبلة عندى فى مكان الروح واننى سأقضى سائر حياتى أنفى بحبا .

وكان صوت عنزة قد علا فقالت سمية نحاول تهدئته :
— لا تغضبك هذه الحقايا يا عنزة فما هى الا الغيرة تدفعها .
فصاحت مروة : — أئدفعنى الغيرة من عبلة ؟ وهل هى خير منى ؟

فقال عنزة وقد عاد الى هدوئه :
ليس يسرنى وحق مناة أن تكون مروة زوكة اعمارة ابن زياد . ذلك العتي المعجب بنفسه الذى ينظر الى صورة وجهه فى زير الماء كما يفعل النساء .
فقال مروة فى غضب وعتب .

— ومن قال لك اننى أرضى رواجه ؟
وعند ذلك أطل شداد من خيمته ونظر حوله وهو يتمطى قائلاً : ما هذا الصراخ يا هؤلاء ؟
ثم وقع نظره على عنزة فقال فى تودد :

— أهذا انت يا عنتره ؟

واتجه اليه عنتره قائلاً :

— كنت انتظر ك يا سيدى فهل لى ان أحدثك حديثاً ؟

فقال شداد وهو يسير خارجاً :

— رانى كذلك أحب أن أحدثك . وقد كنت على عزم

أن أبست فى طلبك .

وسارا معاً الى جانب من الشعب فانتحيا فيه جانباً عند

مهبط السيل ، وجلس شداد على قطعة صخر ملساء وحلس عنتره

عند قدميه ووضع رءحه تحت رجليه .

وقال شداد : اهلك سمعت بما اعتزمت عليه عبس من

غزوه طيء .

فقال عنتره مطرقاً : كست فى مراعى اهلك ولم أسمع إلا

بولية أحيك مالك .

فنهطن شداد إلى ما تحت كلمته ، وقال متحاشياً الخوض فى ذلك

الحديث : أ كست تحب أن تفضى إلى بقول ؟ ابدأ أنت

بحديثك يا عنتره .

فقال عنتره وهو يغالب ما يثور فى نفسه :

— انتى لا أستطيع يا سيدى أن أنكر فضلك على . أنت فارس عبس وشيخها وأنت ملاذ الخائف ومطعم الجائع ومكرم الصيف . وقد حدثتني أمى عنك أحاديث طويلة منذ كنت طفلاً فقال شداد عابساً :

— قل ما تريد فأنى سامع .

فقال عنتره فى حرارة :

حدثتني أمى عن رحمتك بها ورك بأبنائها ولكها تقول لى قولاً لم أسمعه منك أنت يا سيدى .

فقال شداد فى صرامه : قالت لك إلك ولدى ؟

فقال عنتره ثانياً : — قالت لى ذلك منذ كنت طفلاً .

كنت إذا لعبت مع أطفال الحى وغازبتهم سموى بأمى وقالوا لى أقوالاً لم أفهمها ، فكنت أنتقم لفسى وأصرهم فلا يزيدون الا جرأة على ويجمعون فى حلقة يعبروننى ويسخرون منى . فاذا ضقت بذلك ذهبت الى أمى فشكوت لها وسألها عن أبى لكى أأخزى به كما يعاخذوننى مآثمهم ولكها كانت لا تزيد على أن تمكى ثم قالت لى يوماً انتى انك ، فأحسست الكبرياء تملأ قلبى . ولكن وا أسعاه ! كنت أذهب

إليك ولا اجرؤ على سؤالك ، ولم أسمعك يوما تناديني قائلا
« يا ولدى »

فقال سداد في جهود : وماذا تريد بقولك هذا ؟
فأجاب عنتره : لست أريد الا ما يريد المرء من أبيه إذا
كان أباه حقاً

فقال سداد : ألسنت اكرم مكالمك يا عنتره ؟ ألسنت ادخلت
على اهلى ؟ ألسنت أركبك معى إذا سرت الى الغزاة ؟ ألسنت أناجيك
كلما اعتزمت مع قومي أمراً ؟ اننى ادعوك الى حماية الحمى اذا
طرق الطارق ؟ ألسنت تأكل معى وتجلس حيث أجلس مع
سادة عبس وتحدث فى مجلسى وأبصرك اذا ظلمت وأدفع عنك
اذا ظلمت ؟ فسادا تبتغى منى بعد ذلك اذا كنت أباك حقاً ؟
فقال عنتره فى رقة : لست أنكر فضلك فالى اذن لجهود .
إليك لتكرمنى ولا تجعلنى فى مكان هؤلاء العبيد الذين
يرعون إليك معى . وقد كنت تملك أن تردنى اليهم إذا شئت ،
وتذل تلك النفس التى تقول أُمى إننى ورثتها منك . ألا تقول
لى اننى ورثت هذه النفس منك ؟ قل لى هذه الكلمة يا أبى ،
بحق سيمك ورمحك حتى أسمعها من بين شفقتك أنت .

فقال شداد متبرماً : إنك تلج لجاجة لا أحدها .
 فنظر اليه عنقرة في حيرة ، وقال : لست أحب اللجاجة
 يا سيدى . ولكنى لا أحب لك إذا كنت أبى أن تفكرنى .
 إنك إذن رجل تسرف فى نفسك وفى تلك البضع التى تخرج
 من صلبك .

فقال شداد مغضباً : حسبك أيها العبد أمسك لسانك .
 فقام عنقرة ومد يديه نحوه ضارعا ثم قل :
 أيها البطل لست أحب أن أغضبك . ولكى لست أَرْضَى
 لك أن تقذف بى بعيداً عنك إذا كنت من دمك . ان لى
 فى الحياة حقاً ، ولكنى أجد الحياة تفكر لى . كيف بى أن
 أعيش فى قيد الرق وما الحياة تستحق أن أحيائها إذا هى خلت
 من الحرية . إننى أحب الحرية لأبني أحب الحياة . وأحب أن
 أعيش كالسأس أقول «نعم» حيناً وأقول «لا» حيناً إذا بدا لى أن
 أقول «نعم» أو «لا» . أحب أن أكون مثلهم فى ميزان الأحرار
 وأعاشرهم وأعاملهم على أننى أحد بى عبس . أَرْضَى لنفسك
 أيها البطل أن تعيش عبداً ؟ أما كنت تؤثر أن تجاهد فى سبيل
 حريتك حتى تفوز بها أو تنخر صريعاً فى جهادك لها ؟

واقعد كنت أرضى أن أكون عبداً لو كانت لى النفس التى
ترضى بذلك ؛ فاذا كمت أى فان دمك الحر هو الذى يشور
فى قلبي .

فلان شداد بعض اللين وءال :

— إنك تجرعنى الغيظ بما تلقىه على من هذا القول الذى
ينطالق إلى أذى كأنه جمر الغصا .

فقل عترة فى رقة :

— قلت لك إني لا أحب أن أغضبك فلا تغضب على إذا
دفعنى يسى إلى مراحهك . است أكره أن توقع فى فدهب
عنى تلك الشجون التى وورقى فى للى وتذنى فى نهارى وتجعل
حياتى بغيصة إلى نفسى . لست أكره أن أفارق هذه الحية على
يدبك فأخلص من هذه السبة التى يرددعها الناس كلما وقعت
بينهم عند أول غضة يغضونها . فهم إذا عجزوا عن مهاخرتى
بأنفسهم نفروا على بأنائمهم وقالوا لى يا ابن الزبا ولوعرفت أى
لماخرتهم به وأسندت إليه ظهرى . حتى أنت يا شداد تقذفنى
بهممك إذا غضبت وتدعونى عدداً كما فعلت الآن معى . بل
إلك لتسب أى وتظمن فى عرضها ولقد كنت جديراً بأن تكون

أبعد الناس عن إذلالى إذا كنت أبى . فهل تكذب أُمى إذ
تقول لى إننى منك ؟ أم هى تعلم أنها كانت فى كنفك ثم
اختانتك فى ولادتى ؟

صاح شداد فى غيظ : أما قلت لك أمسك ؟
فمضى عنتره فى عناد :

لك أن تنكر أنك أبى إذا كنت تعلم أننى لست لك ولداً .
ولو فعلت ذلك لوجدت عنك مندوحة ياسيادى . فإبى أقدر على
أن أضع ذناب السيف فى صدرى حتى يخرج من ظهرى وأخلص
من هذه الحياة عامداً ، فلا تنالنى تلك الوصمات التى يلطخ بها
جيبى . ولكنى لا أقدر على أن أدعك وأنت لا تنكر أبوتى .
فلا بد لك من إحدى خصلتين : إما أن تقرّ بأبوتى وإما أن
تنكرها .

وكان شداد مطرّفاً فى أنفاه - هذا الحديث متردداً فنظر إليه
عنتره وزاد طمعه فى لينه ومضى قائلاً :

— وإبى فوق ذلك أقدر على أن أذهب عن هذه الأرض
فلا أقم فى ديار لا أعرف فيها إلا بأبى العبد المسخر الذى يقاتل

من أجل سادته ، ويفنم لهم الغنائم ، ويؤجر على حمايتهم بالطعام والشراب والجلوس في مجالسهم .

لست أرضى لنفسى أن أكون عبداً لك تملكنى كما تملك هذه الإبل وهذه الخيل . وإنتى قادر على أن أمنع نفسى وأفوز بحريقتى لأننى قادر على أن أمنع حرمكم وأزود عن حريتكم . هذا سيفى يحارب فى سبيل مجدكم ، وإنه لسيف عاق إذا كان يخدمكم ويتخلى عنى .

فرفع شداد رأسه بفتة وقال :

— أتمنئ عليكما بحمايتك أيها الشقى ؟

فنظر إليه عنقرة ثابتاً وقال :

— لست أمن عليك ولا على أحد بحمايتى . ولكنى أقول

الحق الذى لا تستطيع أنت أن تكمره . إبنى أغزو وأتقدم الصفوف لأقتحم العدو فى صدرها . وأجرؤ على لقاء الموت إذا سكس كل فارس عن لقاءه . وأغم الغنائم لكى تقسموها فيما بينكم فإذا منتم على نصف سهم رأيتم أن هذا إيثارلى واعتراف محقى . وإبنى لأبذل مافى يدى تكبراً عن المال ، وأعف عن الحرم تسامياً عن الدنيايا . واست أريد بهذا القول إلا الحق ، فإذا كان

هذا يفضلك منى قلت بعد هذا أذكره . وحسبى أن أباعد
 بنى وبينكم فلا أكلهم من أمرى مشقة . ولكنى أحب منك
 خصلة لا أعدوها حتى تنكر أوتى . فإذا كنت أبى فألحقنى بنسبك
 كى أعرف نفسى ويعرف الناس حقيقى . وإذا كنت تلم غير
 ذلك فأصرفنى بكلمة فلا أعود إلى خطابك ولا أصدع أذنك
 كلمة منى . ولكم قد زعمت للناس يوماً أنك أبى . ألا
 ذكر يوم اختلف قومك على . منذ كنت طالاً وأيت إلا أن
 يحوزنى ؟ ألم تقل لهم عند ذلك إناك أبى ؟ أما كدت تقابل
 بناء عمك من بنى عرس عند ما أرادوا أن يحملونى فى بعض
 صبيهم من الغيمة ؟ لقد قالت لى زبيبة هذه القصة ، فكدها
 ذا شئت ، بل كذب نفسك إذا استطعت أن تقول كذباً .

وما كاد سداد يسمع هذا حتى بلغ به الغيظ مبالغه ، فلمس
 قبض سيفه وقال فى صيحة عنيفة وهو يتب قائماً :

— وحق مناة واللات والعزى ما صبرت على أحد صبرى إياك
 بها العمد الشقى . ولست أدرى ما الذى يمنعنى من سفك دمك
 بها العاق الجاحد وأنت تفرغنى منذ اليوم بـذلك وتجهينى بساكنك ؟

إنها لقيصة أحسها في نفسى أن أرق لك كلما هممت بأن أعمد
هذا السيف في أحشائك .

فزع عنقرة سيفه من حائله ورماه بعيداً ثم وقف وفتح
صدره الواسع وقال بصوت أجس :
— أظهر ما يشور في قلبك ولا تكتم غضبك ، فأبك إن

علت خفت عني ثقل ما أحمل من حياتي . إنني أحرصك على
قتلى فلست أريد أن أحيي تلك الحياة التي تريدني عليها . اقتلني
وأنت هادئ مطمئن النفس لأنك تريدني من تلقائي .

وإذا شئت عيني وعاد إلي أنصخرة فجلس عليها صامتاً وهو
يلهث مما في صدره ثم قال بصوت فيه ربة العتاب :

— أنت تعلم أن هذا الأمر لا أملكه وحدي .

فصاح عنقرة كمن أحس بالنجاة :

— إذن فأنت تعترف بي

فقال شداد في حزن :

— است أنكر أنك ابني . ولقد علنت أنني آثرتك منذ

كنت طفلاً وحنوت عليك وأمنت إليك . ولكن لك أعماماً
وأخوة وبني عمومة ، ولئى أصهار وأخوال وكلهم يملكون من هذا

لأمر ما أملك ، فلا أقدر أن أصرفهم عنه . إنهم يملكون أن
خضبوا على وعليك إذا ألحقت بهم المرة باتسباك .
وأطرق الشيخ واجماً ووضع رأسه بين كفيه . فقال عنقرة
لى ضراعة :

أتكون معرتك أن تنسب إليهم عنقرة ؟
فرفع شداد رأسه متردداً وقال :
— أهلى يا عنقرة ، ولا تقس على . إننى لا أقدر على أن
فرط فى متلك فقد عجز الأحرار عن ولادة قرينك .
فقال عنقرة فى نفمة يأس :

— فأنا إذن عنقرة العبد حتى يرصى كل هؤلاء ؟
فقال شداد فى تردد :

— تريث لى حتى أحلهم على رأيى . تريث يا عنقرة ولا تعد
لى حديثك هذا . وتعال أحدثك الساعة عما كنت أود أن
بدأ به حديثى .

فقال عنقرة فى حنق :

— أتريد أن تحدثنى فى غزو طيء ؟
فقال شداد : تعال أحدثك وان تجد منى إلا ما ترضى .

فصاح عترة :

— فأما العبد حقاً إذا رضيت أو سمعت منك . أما وقد
أبيت يا سيدي ألا أن أبقى عبداً فلن أكون لك إلا عبداً
حتى يرضى كل هؤلاء فيهنوني حريقى .

سأعزل هذا الحى وسأقنع منك مما تعطى . أنا أعرف الآن
أنك أرى لأملك قلبها بلسانك ، فليس لى أن أتهم زبيبة منذ يومى .
وسأرضى عن الحياة وإن أظعن قلبى بيدي . سأبقى حياً فإن لى
أملأ لا يزال يحملنى على الحياة ، وإن أحسن بعد اليوم فى قرارة
نفسى عاراً .

واسكنى لن أبقى هاهنا . سأذهب إلى مراعيك لأكون
هناك مع العبيد أمثالى . أما الحرب فحدث عنها سوى .
ومال يأخذ رمح وسيفه فقال شداد فى دهشة :
— أذلك عترة الذى أسمعه ؟

فصاح عترة : نعم هذا عترة العبد . هذا عبدك يا شداد
بن قراد . سأذهب إلى البر لأرعى إبلك وأحلب نياقك وأدفع
الذئب عن غنمك وسأجعل رمحى وسيفى لمصارعة الوحش ، إذ
لا شأن لى بالفتنة والغزو والحرب . ولن ينبغى لى أن آقف دون

الحرم يوم يدعو الفزع لأن أئى لا يرضى لى ألا أن
أكون عبداً .

وإذا بدا لك يوماً أن تنادى عنتره فلا تدعه إلا لى يحمل
لك قعباً من اللبن، أو لى ينجر لضيفك جزوراً، وستجدنى لك
كما شئت . ولن أملك قلبى هذا من محبتك لأنه لا ينكر أبوتك .
سوف أكون عبدك أحنى عنك طرى وغضى وسوف أدير
عينى إذا نظرت إلى حق لا تلج رميمز غيضى ، وسوف
لا أجبر بذات نفسى تحت سمعك، ولا أنحدث عنك إلا من
خلف ظهرك ، فإذا قربت منى فلن تسمع منى إلا ألفاظ الوفاء
والولاء . هذه شيم العبيد فلا تنتظر منى سوى شيم العبيد يا بطل
عبس وكريمها . يا سيدى شداد . هأنذا أخضع لك وأدعو مناة
أن تحمضك من سيوف الأعداء . وهأنذا أقبل قدميك تذالاً .
ولما قال عنتره هذا أهوى إلى قدمى أبيه فجأة وقباهما ، ثم
نهض مسرعاً وذهب كأنه يهرب من عدو ، حتى احتفى وراء ثدية
الوادى وخرج إلى الصحراء .

كان عنترة واقفاً على رهوة ينظر إلى الحى المضطرب تحت
عينيه ، وكانت خيل طيء تحيط بالبيوت من كل جانب وفرسان
طيء يضطربون فى أنحاء السهل يحاولون أن يدفعوا العدو
فلا يملكون معه شيئاً لأنه غمرهم بالعدد ، وكان أكثر فرسان
عبس قد خرجوا مع الملك زهير بن جذيمة العباسى فى غزوة
إلى بلاد طيء ، ولم يتركوا فى الحى إلا عدداً قليلاً مع شداد
وأخيه مالك وجماعة ضائلة من شيوخ عبس . وما هى إلا
ساعة حتى دخل العدو فى أركة الحى الصيقة بين البيوت ، وجعلوا
يقطعون الحمال بسيوفهم ويقوضون الدعام وينزعون الأوتاد
ويدرسون من ينقدهم من أهل ونسوة . وانقرط عقد العباسيين
فصاروا يتدافعون ويتراحمون فى دعر وكلما انجهموا وحمة وجدوا
العدو يسد سبلهم فيرتدون حدة ، وهم لا يبصرون ما دونهم إلا
بعد أن يصطدموا به ، وتعلت الأمر من أيديهم حتى صارت رضى
المعركة تدور بين حصه البيوت نقوضة ، فكأن فرسان عبس
يخطون ساءهم وأطمعهم فى عمية المعركة . وكان عنترة ينظر إلى

المعاج الثائر وقلبه يثب في صدره ، حتى لقد هم بالنزول عن الرهوة
ليشارك قومه في القتال ، ولكنه كان كلاماً بذلك عاودته ذكرى
حققه على قومه فيردد في صدره أنه تشبه الزمجرة ويحمل نفسه
على البقاء في مكانه قسراً .

ومرت بمخاطره صورة ذلك اليوم الذي أقبل فيه العدو إلى
ديار عبس وهو معتزل في ذلك المكان يرعى إبل شداد ، فخرج
إليه جمع من الفتيات يدعونه لنجدة قومه ، فلم يستطع أن يمتنع
عن النجدة ، ونزل إلى العدو فقاتل في صدر العرسان حتى هزم
العدو واستنعد منه ما كان حازه من الغنائم ، وفك أسر من كان
أسر . فما هو إلا أن فر العدو حتى أقبل قومه فاقسموا التيء الذي
غنمه هو من العدو ولم يدعوا له إلا نصف سهم قائلين له إنه عبد
شداد ، ولا ينبغي له أن يعوز بسهم فارس كامل . مرت بمخاطره
صورة ذلك اليوم وصور أخرى مثلها وتذكر كلمات أبيه إذ قال
له إنه لا يستطيع أن يلحق المعرة بقومه بأن ينسبه إليهم فامتلاً
قلبه حقداً وشماتة ، وأحس مرارة ما تجرع من الفصص طول
حياته كلها في تلك الساعات التي وقف فيها يتأمل المنظر
المؤلم .

ولكن خاطر آخر خطر له جعل المعركة الدائرة في نفسه أشد
هولاً من المعركة الدامية التي كانت تدور بين حطام البيوت . فإن
صورة عجلة لاحت له وخيل إليه أنه يراها تحت سنابك الخيل ،
أو أن فارساً من طي^١ قد عدا عليها فأخذها أسيرة لكي يتخذها
أمة له كما أخذ أبوه تدداد زبيبة أمة من قبل . وأحس دافعاً قويا
يدفعه إلى النزول فاحذر عن الرتبة حتى بلغ مكان فرسه الأبحر
ووثب عليه وهمزه متجهاً نحو ميدان المعركة ، ولكنه لم يسر إلا
قليلاً حتى لوى عنان^٢ "مرس وعاد إلى الرتبة وجلس فوقها ينظر
إلى السهل كأنه يتمتع عينيه من طحن قومه في القتال . وأخذ
يكابر نفسه ويراجعها بأنه لا يزيد على أن يكون عبداً يرعى
الابل ويتمن عليه تدداد بأنه يركبه معه ويجلسه في مجالس الأحرار
من قومه . وما كان له أن يتطوع بالقتل عن سادته الذين
لا يعرفون له بينهم مكاناً . وماذا كان يجديه من عجلة انة ذلك
إذا هو أمجأها من العدو المنتصر ؟ أليس أبوها هو الذي أوهم وليمته
لمارة ابن زياد وقد جاء يخطبها ؟ فهل كان ليقاتل حتى يخلصها
من فرسان طي^٣ حتى لا تكون أسيرة عندهم ولا يملكها فتي منهم ،

ثم تكون بعد ذلك عند عمارة بن زياد ويعود هو إلى إبل
شداد ليرعاها ؟

بقي عنتره يعاني هذه المعركة النائرة في نفسه حيناً غير منتبه
إلى ما حوله حتى سمع صوتاً من أسفل الروة يناديه في فزع ،
فنظر تحته فإذا أبوه شداد يصيح به قائلاً :

— أما تسمع يا عنتره ندائي ؟ أما ترى قومك يصرعون
تحت عينيك .

فنظر عنتره إليه ورفع قامته في هياج وركر رجمه في الأرض
في عنف . وصاح في صيحة وحشية :

— وما شأن عنتره بالقتال أيها الشيخ ؟ وما قومي الذين
تدعوني إلى نصرتهم ؟ ليس لعنتره قوم . لقد علمت أن ليس
لعنتره قوم . فادهب عني .

فصاح شداد :

— وحق مناة لقد أصابك الخبل أيها العاق .

فصاح به عنتره في سخرية :

— لا تؤاخذني يا مولاي فإني نسيت الأدب في خطابك .
ولكنني عبد وما شأن العبيد بالقتال ؟

ثم عاد فضحك فحكته الأولى .

فقال شداد :

— دع هذا الهراء وأسرع إلى .

فقال عنقرة متحدياً :

— إني تركت الركوب والقتال فليس لي قوم أقاتل عنهم .

إني لا أحسن إلا أن أحلب البياق وأن أحفظ سخال الأغنام وفصائل الإبل من عدوان الذئب .

هذا رمحي أستعمله هراوة في يدي أهش به على غنمك يا شداد بن قراد ، وهذا سيفي في عمده أضرب به أعجاز الفحول المتمردة عند موارد الماء . هذا يا سيدي ما أحسن من بلاء الحياة ، فلا ينفي لي أن أشارك السادة في الدفاع .

إنما الحر هو الذي يسند الأحرار ، فإذهب إلى هؤلاء الذين يحق لهم القتال . إذهب إلى أصهارك وأحوالك وإلى عمارة بن زياد فادعهم إلى نصرتك . إذهب إلى بني قراد فهؤلاء هم الأحرار . أين مالك أخوك وأين عمرو ابنه ؟ وأين زخمة الجواد وأين أبناؤه ؟ أين هؤلاء جميعاً فإبهم في غنى عن العبد ابن زبيبة .

وعاد إلى الضحك كأنه قد اختبل عقله .

فصاح شداد وهو ينفجر غيظاً :

— انزل ثكلتك أمك قبل أن أصعد إليك فانكل بوجهك

الأسود .

فصاح عنقه في جنون :

— اذهب أيها الشيخ عني ، فإنك تسخر من نفسك .

اذهب عني فوحق مناة وكل آلهة عبس الجوفاء إنني لا أعرف

القتال . ولن تجدني إلا كما أردت ، عبداً يشمت كلما رأى ذل

كبريائك . اذهب فقل لقومك هذا مصرع البغي ، وما اتخذ

قوم بعضهم عبيداً إلا كان بعضهم فيهم عدواً . أنا عبد عبس

ولست من عبس . سأنظر إليكم وأرى طحنكم وأمتع نفسي يقهركم

وذلكم ، وماذا يضر العبد عنقرة إذا نكل العدو بكم ؟ أنا اليوم عبد

عبس وسأكون غداً عبد طي ، وإذا رعيت إبلك اليوم في عبس

فسأرعى إبل سيدي في طي غداً . هذا ما تعلمته فيكم من

الكرامة فاذهب عني لا أنالك يا شداد بن قراد .

وكان الشيخ يسمع قوله وهو لا يصدق أذنيه فقال والنعيط

يخنفه :

— لقد همت أيها الشقي أن آتي إليك فأضع سيفي في صدرك.
أهذا عنتره الذي يخاطبني ؟

فصاح عنتره : تعال أيها الشيخ فضع سيفك حيث
أحببت . أتعجب من قولي وتسأل أهذا عنتره الذي يخاطبك ؟
بل أما الذي أسأل أهذا هو شيخى وسيدى الذي يخاطبني . ألا
تذكر يوم تركتني أذهب مع العبيد أمثالى لأرعى إبلك ثم
نسيتني ؟ أوجدت القتال أحر مما يقوى عليه فتيتانكم ؟ أما تدعنى
أيها الشيخ أحلب وأسرق وأتذال فى الخطاب ؟ أما كان ينبغى
لك ألا تجىء ها هنا حتى أجعل حدى عليك من وراء ظهرك
كما ينبغى لعبد مثلى ؟

فتوغل شداد فى الربوة صاعداً والغيظ يدفعه حتى اقترب
من عنتره وأمسك بكتفه فهزه فى عنف وقال له :

— أنك تضع الفرصة فى حديث ماطل . هلم فانزل معى
لا أم لك !

فارتقى عنتره عند قدميه وقبلها ثم وقف أمامه متحدياً وقال :
— هاأنذا قبلت قدميك كما فعلت مرة من قبل ... على أن
أسمح لنعليك وأن أهل لك إداوتك وكنانة سهامك ، وأن آتى

لصيفك بالطعام والشراب، واقف بين يديك صاغراً، مرهماً أذنى
 لهمسات أمرك فاتحاً عيني لكل إشارة منك . اذهب يا سيدي
 فأنا عبدك الذى ينتظر خدمتك . فإذا وضعت الحرب أوزارها
 وجدتني عند قدميك جاثياً . وأما القتال فقد قلت لك أنه ليس
 من شأني . اذهب أنت لا أم لك سيدي . فاست أحسن إلا
 الحلب والصر ولا شأن لى بالصرب والكر .

وكان شداد يسمع هذه الكلمات وهو يتحرك فى قلق وينظر
 إلى عنقرة فيفتح فيه ويهم بأن يصيح به صاحباً، فلا يدع له
 عنقرة فرصة للقول بل يتدفق فى قوله الحائق تدفقاً متصلاً . وكان
 بين حين وحين يلتفت إلى ميدان المعركة فيرى المرسان لا يزالون
 يتجاولون ويتبارزون وهم يتنقلون بين البيوت التى دكت
 دكاً . ورأى النساء والأطفال يسوقهم العدو مع أسلاب الإبل
 والأغنام إلى ناحية فى انتظار القضاء على بقية المقاومة، فلما فرغ
 عنقرة من قوله صاح شداد فى ضراعة :

— أهكذا تتخلى عن قومك ؟ أما ترى العدو وقد حطمهم
 وكسر بيوتهم وأخذ ساءهم وأطعالم سبائاً ؟ أنظر يا عنقرة إلى
 فم الشعب هناك حيث منارل أبيك وأعمامك ؟ ألا ترى العدو

يسوق نساءك وبنات أعمامك ؟ إنك تشمت والحر يشتري نفسه في مثل هذا اليوم . فإذا أردت أن تكون ابن شداد حقاً فليست أبد الدهر بأبيك إذا أنت قدمت عن قومك . إن الحرية تشتري وليست توهب يا عنتره ، والعبد هو الذي يتدفى وهو قاعد ، فهو عبد إذا وهبت له الحرية عطاء . أنها تكون كقطعة من العظام تلقى إلى كلب جائع ينتظرها صاغراً . قم يا عنتره وأزل عنا معرة هذا اليوم .

فانمض عنتره وصاح بأبيه :

— وماذا يكون اسمي منذ اليوم يا سيدي ؟

فصاح شداد في حنق :

— حسبك أيها الأحمق لا أم لك . ماذا يغنى الاسم عن الرجل إذا كان في حقيقته عبداً . هلم يا عنتره فاسرع من ورائي .

فصاح عنتره :

— قل لي يا ابن شداد ولومرة . قل ذلك يا أبى حتى أسمحك تدعوني ابنك .

فصاح شداد وهو يثب إلى أسفل الرهوة :

— أسرع ورأى يا عنترة بن شداد . إنما العبد من يقول
لك منذ اليوم غير ابن شداد .
فاندفع عنترة في أثره حتى بلغ مكان الأبحر فوثب عليه
وسبق أباه قائلاً :
— الحق نى يا أبى وقاتل إلى جانبي . فسأماذى اليوم فى
قتالى : أننى بن شداد .

٧

قضت عبس أياماً بعد انتصارها على طيء فى عيد متصل ،
إذ كانت نجاتها إحدى العجائب التى جرت المقادير بتدبيرها .
فقد بنتها طيء بفرسانها على حين كان العبسيون مع ملكهم
زهير بن جذيمة بعيدى عن الحى يطلبون ديار طيء . ولم يبق
فى الحلة إلا العثة القليلة التى هجرت فى دفاعها حتى اجتاحت الغيرون
كل ما وقف فى سبيلهم ، وأحس القوم أن أمرهم قد انتهى إلى
الدمار . ثم أقبل عنترة على غير انتظار فأحال المزيمة الطاحنة إلى
نصر باهر عجيب ، فهرب فرسان طيء لا يلوون على شيء وتركوا
ما أخذوا وما كان معهم سوى الخيل التى مجوا عليها سراعاً .

وعاد زهير بن جذيمة عند ما سمع أنباء الغزوة وما أصاب قومه فيها ، ولكنه وجد الحلة في عيد صاحب ، ورأى عنقرة فيه واسطة العقد في الأسمار والولائم . فلم يدع وسيلة يعبر بها عن شكره وتشكر قومه إلا توسل بها . وكانت الكؤوس إذا دارت في مجلسه كان عنقرة أول الشارين ، وإذا أنشدت الأشعار في حلقات الندى كان شعر عنقرة على كل لسان ، وإذا أقبل العتيات في حلقات الرقص كان هتافهن باسم عنقرة ، وما كان أحب إليه أن يسمع اسمه الجديد من أفواههن وهن ينادين عنقرة بن شداد .

وسار عنقرة ليلة من تلك الليالي مع عبلة وهو مخمور بجمرين : من الكؤوس العدة التي دارت عليه في مجلس الملك زهير ومن حديث ابنة عمه التي كانت تهمس به إليه في تهاتف من ضحكها وأنغام من صوتها الرخيم . وكان أحياناً يصف لها بعض ما كان بينه وبين فرسان طيء من مواقف في يوم المعركة ، وأحياناً يعيد عليها ذكر بعض مخاطراته في سير الصحراء في الليالي المظلمة ، والقول تلوح له ، والجن تتراقص أمام عينيه ، وأحياناً ينشدها من شعره ويحدثها بنجوى قلبه . ثم خطرت له ذكرى ما كان القوم يتحدثون به عن خطمة عمارة بن زياد لها فقال فجأة :

— أحمًا ما يقولون يا عبلة ؟

فقال له باسمه : وما يقولون يا ابن عم ؟
فقال وقد أطر به نداءها : إياك تسأليني كأنك لا تعرفين
ما أقصد يا عبلة . لقد عهدت لك تدركين ما وراء اللفظ قبل أن
أنطق به .

فضحكت عبلة وقالت : أحمًا ذلك يا عنبرة ؟
فقال عنبرة : ألا تذكرين إذ كنت تسأليني عن أمر فأقول
(لا) فتضحكن مني ، فإذا سألتك عن ضحكك قلت انني
ما قصدت ان أقول لا . انك تحسبن بالالهام ما لم يقع بسدي
سممك . فما الذي جعلك تسألين عما يقولون ؟

فقال عبلة ضاحكة : لقد كنت أنت الذي لا تدرك إلا
ما وراء اللفظ يا عنبرة ، فأنت ترى دائماً من ثفايا حديثي ما لم
أقل لك . وانك لتزعم انك تعرف من معاني قولي أكثر
مما أعرف . ألا تذكر أنت إذ سألتني بالأمس عن عمارة فلما
أجبتك لم يعجبك جوابي وأبيت إلا أن تزعم انني أراوغك .
إلا أنك أنت الذي تراوغني اليوم .

فقال عنبرة : لقد فهمت قصدي بالهامك فقد ذكرت عمارة .

فقلت عبلة ضاحكة : أف لك ولعارة يا عنتره ! إن الناس يتحدثون في شأنه وليت شعري أى أحاديث الناس تقصد . فليس لهم من هم في ليل أو نهار إلا أن يتحدثوا . إنهم يتحدثون إذا أكلوا ، ويتحدثون إذا شربوا ، وهم أكثر حديثاً مثلك الآن إذا حيت سورة الحمر في رؤوسهم . هم يتحدثون إذا صحوا وإذا ناموا فأى هذه الأحاديث تقصد يا عنتره ؟

فقال عنتره : لست أبالي ما يقولون في أياهم أو سهارهم إلا إذا كان عنك أنت .

فقلت عبلة : وماذا يهمك من هذه الأحاديث ، وقد طالما سمعتك تقول إنك لا تبالي ثرثرتهم ؟

فقال عنتره في نعمة عتاب : أنت يا عبلة تعبين بي كعادتك ، وأما بين يديك أضعف من فرخ الحمام وأخف من ريشة في الهواء . ذريني يا عبلة أعرف ما في قلبك .

فقلت في دلال : وأين ادعائك أن شيطانك يلهيك ؟

فقال عنتره : إن هذا الشيطان لم يستطع يوماً أن يسبر عور قلبك . إنه لا يسبر إلا غوري ولا يكشف إلا قلبي . أما أنت ها هنا أجلس معك وأسير إلى جانبك ، وأخرج في السماء إلى حيث

أحيا في عوالم سحرية من السعادة تلهيني عن كل هذه الأرض ،
ثم أنصرف وقلبي في حيرة بين الأمل الذي يلوح لي والقلق الذي
يساورني . فأنظر حيناً إلى الأرض فأراها جنات فيحاء تحيط بها
الأنهار وتتصجر فيها العيون ويبتسم فيها الزهر ويفنى الطير ، ثم
لا ألبث أن أحس الشجون تثور بي فلا أعرف أنا أظأ الأرض
بقدمي أم أنا فوق لجة تضطرب لي . ومع ذلك فإن شيطاني في
شغل عنك لي .

فقلت عبلة في مرح :

— هذا هو شعرك دائماً يا عنتره . تحدث وأطل في الحديث
فإنه ينزل على سمعي كما يقع الندى على أوراق الشجر .
فقال عنتره في شيء من الألم :

— إنه حديثي . وإنه شعري . نعم فأنا أحدثك وأصف لك
حروبي وأطرب كلما سمعتك تستزيدين من وصفي . ولكنه دائماً
قولي وشعري ووصفي . وأما أنت فلا تزاين دوني مثل النجم
أبعد ما يكون إذا بدا قريباً . وإنه ايحزني ألا أسمع منك إلا
ذلك الإعجاب بما أقول وبما أصف .

فقلت عبلة في شيء من الضيق : وماذا يرضيك أن أقول ؟

فقال عنصرة في صوت متهدج :

— لقد خدمتك أخلص ما تكون خدمة العبد ، ولم
أستشعر معك كبيراً . وكم جثوت تحت قدميك وأنا أقدم لك
قعب اللبن لتشربى منه ، وكنت أقول لك من أعماق قلبي
(هنيئاً) . أنت أمدأ علائقي في الحياة وكنت أطمع أن أكون
عندك شيئاً . كنت أطمع أن أسمع قلبك ينبض مرة من المرات
مستجيباً لخفقان قلبي .

فضحكت عبلة ضحكة بعثت رعدة إلى قلب عنصرة ،
ثم قالت :

— ألا تملك يا عنصرة عن وصف نفسك هذا الوصف
الذي لا أحب أن أسمعه منك ؟ إنك إن عمى عنصرة وأنت تعلم
أننى ما نظرت إليك يوماً إلا نظرتى إلى إن عم لى .

فقال عنصرة فى شىء من الخلق :

— إنها كلمات جوفاء لا تحمل إلى معنى .

فاستمزت عبلة فى ضحكها وقالت :

— أأست عجباً يا عنصرة ؟ ليتنى أعرف السبيل إلى كلمة

ترضيك فأسرع إليها .

فقال عنزة في حرارة :

— أنت لا تعرفين الكلمة لأن قلبك لا ينطوى عليها .
وما طلبى ولجأجتى إذا كان ما أطلب مستعصياً ؟ قولى لى قولاً
صريحاً يا علة ولا تتجملى . قولى إنك ترحمىنى أو أنك تعطفين
على أو أنك تشعرين السرور من قصصى وحديثى وشعرى .
قولى ذلك ولا يأس عليك فإنى أعرف كيف يبدو لك وجهى .
لقد طالما وقعت أمام العدران أنظر إلى صورتى فلم أر فيها غير
لوى الأسود وعينى المتقدتين بطير منهما شعاع مخيف . فلا بأس
عليك إذا أنت لم يطر بك منى سوى حديثى وشعرى .

فقات عبلة في بعض صجر :

— إنك تذهلنى بسيل حديثك الخاق ، حتى لقد ارتج
على القول فلا أجد لك جواباً .

فقال عنزة في غضب :

— ما أحقنى إذ أحاول أن أنتزع القول منك قسراً .

فقات عبلة وقد ذهب عنها مرحها :

— يخيل إلى أن قولك هذا يحمل من الجد فوق ما كنت
أحسب . ماذا فعلت يا عنزة حتى استحق منك هذا العتاب .

لقد بددت في القول عما بدأت فيه . ألا تقول لي ماذا تعني ؟

فقال عترة في حرارة :

— إنني أسالك عن نفسك أنت . قولي لي الحق
ولا تترفقي بشقائي . قولي لي انك فوق نظراتي وفوق عبادتي .
فقالت عبلة في تبرم :

— قول عجيب وحق مناة . ألاح لك مني ما ينم عن
شيء تكرهه ؟

فقال عترة في صوت متهدج :

— أنت تتجاهلين ما تعرفين . وتتجاهلين ما يتحدث به
الناس جميعاً في نواديهم وطلب بيوتهم . ألم يخطبك عمارة بن
زياد وأنت تحجبين ذلك النبا عني ؟ ألم يولم له أبوك وليمة كأنه
ملك ؟ أما كنت تخدميه وتسعين في البيت تستحيتين الإماء
لكي يبالغوا في إكرامه ؟ هذا أنت منذ الليلة ترواغين ولا تريدن
أن تتحدثي بكل هذا الذي تعرفين .

فقال عبلة واجدة :

— عجباً منك يا عترة أهذا هو ما تعني ؟

فقال عترة مندفعاً في غضبه :

— إنك تتخذينى لعبة ولا تريدن أن تكشفن لى عن حقيقة نفسك . الويل لعارة والويل ثم الويل لك إذا انجحت منك لمة إلى عماره .

قالت عبلة غاضبة :

— إنك ترمينى بسهام فى هذه الدفعات الحاقة . ثم أنت هذا تجهينى وتطمعن قلبى وتنادينى بالويل .
ودمعت عينها عند ذلك واندفعت تسير عنه غاضبة .

فقال عترة مترقفاً وهو يسرع وراءها :

— عفواً يا عبلة فإن شقائى هو الذى حرك لسانى .
أأقول لك الويل وإن دمة من عينيك أفتديها إذا استطعت
بجيانى ؟ ويلي أما ونعسا لى ! وحاشاك أن يحل الويل ساحتك
يا عبلة !

ولكن عبلة سارت فى طريقها صامته ومسحت دمعها
بطرف كها .

واستمر عترة قائلاً :

— ألا تقولين لى إنك عهوت ؟ أحقا أنت رضيت بان
ياد زوجاً ؟

فقلت عبلة غاضبة :

— وما شأنى فى زياد وابن زياد ؟

فقل عنتره مترقفاً : قولى كلمة يستقر لها قابى . إيهم يتحدثون
ويملاؤن صدرى سقاء . فهل رضيت به حقاً ؟

فقلت عبلة فى حق :

— وما أنا وذلك واست إلا فتاة ، جاء ضيف إلى أبى

فسميت مع أهل بيتى فى خدمته ؟

فقال عنتره فى لهفة :

— ورضاؤك ؟

فقلت فى شبه سخرية :

— رضاى ؟

فقال عنتره ضارعاً :

— نعم رضاؤك يا عبلة . أترضين به زوجاً ؟

فقلت عبلة فى تحد :

— وما رضاى أنا يا عنتره ؟ فهل أنا إلا فتاة فى بيت أبى ؟

فقال عنتره مندفعاً :

— ستذهبين إذا إلى بيت ابن زياد إذا رصى أبوك .

متكونين إذاً له زوجة إذا قبل مالك من قراد . مستذهبين إذن .
كما تذهب الأمة مع سيدها .

فقلت عبلة غاضبة في كبرياء :

— كف لسانك يا عترة است أمة ، وما ينغى لى أن
'كون أمة . إنما الأداة غيري .

فصاح عترة في حنق :

— نعم الأمة غيرك يا عبلة . إنها زبيبة أمى .

فقلت عبلة في جماء : قل ما مدالك فلن أحبيك .

فقال عترة في صوت أجش :

— الآن قد برح الخفاء يا عبلة واحملى الخلام الذى كن

بمحجب الحقيقة عنى . الآن عرفت ما كمت أبنى أن أعرف .

ما كان أحقنى إذ كمت أسعى إلى أن أعرف هذا الذى عندك

فأرتد شقياً بعد أن كنت أفرح فى جهاتى سعيداً . إذن فهو

زوجك ابن زياد الذى يرضاه أبوك وترضيه يا عبلة .

وأما أما فلست إلا ابن زبيبة الذى يحذرك ويرحى لك

وقت فراذك .

ثم ثار وقال فى وحشية :

— إني ابن زبيدة ، ومن يذهب هذا العار عني . فلا ذهاب
إذن مع سيرل من القدماء وعواصف من اللهيب ، فإن دون ابن
زياد لمهلك تنقطع دونها همه . ألا فاعلى يا عبلة أن ابن زياد
ن يقرب منك ، فأنت لى أما . أما الذى أحببتك وعبدتك
ولا أستطيع أن أحيأ إلا لك . أما ابن زبيدة الذى اشتريت
حريتى بسيف من أجلك .

نعم من أجلك أنت يا عبلة . ألا فاذكرى يا عبلة قولى . سوف
أبعث إليك ليلة زفافك برأس هذا النقي الوسيم لتكون هدية
عرسك ، وإن تزال العرب تتحدث بذكرها أبد الدهر .

تذكرى هذه الهدية التى سأهديها . فإذا ما حانت ليلة
زفافك إلى عمارة فاذكرى وادكرى هدى .

وكا تادقرا من بيت عبلة ، فوقف عنقرة تعترض سبيلها
ليتم لها فيض حنته . ولكنها لم تنظر إليه . ودخت مسرعة
محو بيتها . ووقف عنقرة حيناً ينظر فى أعقابها وكأن ماراً تاتهم
قلبه ، ثم دار فجأة عني عقيبى واتجه نحو الصحراء ، وذهب يخط
الأرض برمحه وهو لا يبرى إلى أين يتجه .

٨

خلا شعب الجواء من منازل مالك بن قراد منذ نزع بأهله إلى أرض شيبان ، وقد ضاقت به الحياة في قومه منذ جهر عنقرة بما ينطوى عليه قلبه من حب عبلة والتعلق بها ، وما اعتزمه من عداوة كل من يجرو على طلب زواجها . وكان مالك يصبر في قرارة نفسه إحساساً بالمرءة من أن يعطى ابنته لعنقرة وإن كان فارس قومه وحاميهم ، وما كان مثله ليصبر إلى رجل ولدته زينة الأمة ، فيمزج دماءه بدماء عبد وإن كان ذلك عنقرة العارس وابن أخيه . وكان عمرو بن مالك أقصد من أبيه نفعاً وكبراً ، فهو يؤثر صديقه عمارة بن زياد السيد الوهاب المحدث من سلسلة الأجداد من الآباء والحرائر من الأمهات والجدات . لم تكن عبلة بأقل ضيقاً وألماً من أنها ، فقد وجدت نفسها قطب لأحاديث في نوادي قومها وهدف الحسد من صاحباتها ، لا يخلو يوم من نفرة في الحى من أجلها ، حتى كاد القتال يدور بين طوائف تازعة في قبيلتها ، فهم من يهتف بعنقرة ومنهم من يتحجر من نفرة ، وهم في كل يوم وفي كل ليلة يتصادمون ويتنازعون

حول اسمها . فانطوت على نفسها كذئبة لا ترضى بأن تزور
ولا بأن تخرج للقاء من يأتى إليها فى رياره . وكان صاحباتها
كلما جئن إليها لا يجدها على عادتها مرحة مستبشرة تملأ الخالص
سهجة وتبعث فيها روحاً من صوتها العذب الضاحك .

وكان ألمها يزداد كلما تذكرت ما كان بينها وبين عنبرة فى
تلك الليلة ، إذ سر إلى جوارها وقال لها إنها ستذهب إلى بيت عمارة
كأبها الأمة الأسيرة ، ولم يتردد فى غضبه أن ناداها بأوليل
وأغلف فى حديثها ولم يرض منها بما كانت تهدد به نفسه
من مواساتها واعتذارها . بل إنه هدها بهيئته الدموية إذ
قال إنه سوف يرسل إليها رأس عمارة ليلة زفافها .

وكانت فى اعتكافها ساكنة تقضى أكثر الوقت فى فرائشها
وتبكي أحياءها ولا تدري ما الذى أبكاهما ، حتى حال لومها وذبلت
نضرتها وامتلاً صدرها كآبة .

وضاق المقام بأبها ملك وحار فى أمره كيف يطبق الحية
وهو يسمع الناس يشذون تنعر عنبرة فى ابنته ويستعيدونه
فى مجالسهم . وكانت أنفته تنور ولكه كان لا يستطيع أن
يقا تل الناس كل يوم وهم لا يعملون إلا ما تعمل العرب فى إنشاد

شعار شعرائها . ولكن ولده عمرو كان لا يمسك نفسه ، فكان
 " يمر بقوم يتغنون بذلك الشعر إلا بادرهم باللفظ الخائق وهم
 نتالهم . فأشفق مالك من ذلك كله ولم يجد له مخرجا الا أن
 نادى أرضه ويرحل إلى أصهاره في بني شيبان .

ولم يطق عنتره كذلك البقاء في قومه ، فهام على وجهه
 الصحراء ، فكان لا يلم بالخي إلا بين حين وحين . وكانت زيارته
 " تزيد على أن تكون المائة بشعب الجواء فيقضى منه أربه من
 نسم نسيمه وانشاد بعض انشعر عنده ، ثم يعود إلى صحرائه ليضرب
 ، شعابها ، حتى تغير وأصبح لا يكاد يرى مجامع الناس .

وعاد يوماً إلى طلل دار عبلة وهو أسمع أغبر ، قد مرزت
 جفتاه وعارت عيناه واصفر لونه الأسمر ، ولم يبق منه سوى
 ينين : نأتلقان ، كأن شعاعهما يريق السيف في ضوء القمر .

وجاء إلى طلل الدار فجال بين مواضع نيرانه وآثار أوتاده ،
 بقايا النوى التي كانت تحيط بخيامه ، ثم وقف مهوياً يمسك
 على رمح الرميزن الرمل يديه مستنداً بذقنه عليه ، كأنما هو
 ثال في غرائب . عهد منذثر .

وقضى ساعة وهو يتأمل ما تحت عينيه ، فهناك كان خفاء

عبلة، وهناك كانت تقبل عليه باسمه تتناول منه قعب اللبن في الصباح، وهناك كانت تضحك مكررة إذا سمعته يهيس لها بكلمة حب، وهناك كانت تقف ناظرة إليه في عطف وهو يعف لها آخر مغاريه . حتى إذا ما انتهى أدهف أذنيه ليسمع منها كلمتها التي كان يكتفى بها الشفاء غلته .

ثم تذكر كيف أتى إليها عند ما سمع بمرضها فقم بإذن له أوحى برؤيتها ، فلما أرسل إليها أمه لم تجد منها سوى البكاء ، ولم تسمع منها إلا كلمات بدو فيها الحزن والحزن . ونظر إلى بيوت الحى المشورة فى أحياء السهل ، فأحس من نفسه دفعة إلى أن يعضى إليها فيقطع من فيها ريمه ويضرب فيهم بسيفه حتى لا يبقى أحداً بعد ما فى تلك الديار التي كانت هى صاحبته وهى المازلة فيها . فما هذه البيوت بعد أن خلت منها ؟ وما تلك القبية كلها بعد أن رحلت عبلة عنها ؟

ثم جعل يتفنى ببعض شعره وهو متكئ بذقنه على يديه مستنداً على ريمه لا يحس شيئاً مما حوله ، حتى أقبل أخوه تينبوب من ورائه فسمعه وهو يقول :

خليلى أمسى حب عبلة فأتلى وبأسى شديد والحسام مهتد

حرام على النوم يا ابنة مالك ومن فرش جمر الغضا كيف يرقد
 سأمدب حتى يعلم الطير أننى حزين ويرثى لى الحمام المفرد
 وألثم أرضاً كنت فيها مقيمة لعل لهيبى من ثرى الأرض يبرد
 رحلت وقلبي يا ابنة العم تائه على أثر الأظعان للركب ينشد
 لئن يشمت الأعداء يا بنت مالك فان ودادى مثلما كان يعهد
 فناداه شيبوب من ورائه قائلاً :

— ها هي ذى ركائبك يا عنتره حاضرة .

ونظر إليه عنتره فى فتور ، ثم نزع الرمح من الرمل وسار يجر
 رجليه وهو صامت ، حتى ركب فرسه ، وسار أخوه يسوق الإبل
 المحملة من ورائه . وبقي عنتره على إنشاده كأنه يهمس به إلى
 نفسه حتى بعد عن الحى وأوغل فى الصحراء .
 وأقبل الليل فتقدم إليه أخوه شيبوب وسأله النزول فقال
 عنتره واجماً :

— لوددت أن أسير ليلى وهارى ، فانى لا أطيق أن استقر
 يا شيبوب .

فقال شيبوب عاطفاً :

— ولكنى لست مثلك يا عنتره ، ولا بدلى من أن أذوق من

الطعام والخمر بعد كل يوم . ثم مضى ليوقد النار ويعد الطعام . وجلس عنقرة وحده يناجى شحونه حتى عاد إليه شيبوب يحمل الطعام ، ولم يستطع أن يقاومه فذاق معه تبيثاً ، ثم أخذ منه كأساً بعد كأس وهو يغمغم بين حين وحين في نفسه ببعض الشعر ، ثم اتجه بعد حين إلى تيبوب وقد حركته الخمر فقال :

— هذا الفضاء المسيح يشملنا وحدنا ، فكل ما فيه من وديان وتلال وأغوار لنا وحدنا . ولو كان في هذه الوديان أموال لم يمتنع علينا شيء منها . فأما ملك هذه الأرض يا شيبوب .
ثم تردد حيناً وقال في حزن :

— ولكنى لا أطلب من هذه الحياة شيئاً . وما أصنع بالمال وقد فقدت عبلة ؟ إننى لا أعبأ بهذه الإبل ، فسحل بن طراق الكندى يملك معها آلافاً ويسوقها صداقاً لعبلة ، وفي بني شيبان يملك مثلما قيس بن مسعود لى يهبها مهرأ لعبلة عن ابنه بسطام ، ويملك عمارة مثلها وهو يتقدم بها إلى مالك ليزوج به عبلة . كل هؤلاء يملكون الإبل فتعساً لها وبعداً لمن ملكها !

وكان شيبوب قد أفرغ كأسه وقال في مرح :

— لو كنت عنقرة لقصدت إلى شيبان فنزعت عبلة من بين

ظهرانهم وخرجت بها إلى البر كما يخرج الأسد بفريسته
 فقال عترة : ويلك يا شيبوب ! بل أذهب إليها لكي
 أذرف دمي وأدقق ما في قلبي حتى ترضى عني .

ولاحت عند ذلك سحابة من الطير تضيء بشعاع القمر تيمم
 نحو الغرب ، فقال عترة وهو ينظر إليها :

— ليت لي جناح هذا الطير فأذهب حيث شئت وأنقل مع
 سرعة خاطري إلى حيث تنوق نه سي .

بل آيت لي مثل حاحها فأحاق فوق هذه الأرض وأقذف
 عليها من السماء حما حتى لا يبقى عليها غير علة يا شيبوب .

إنهم لا يزالون ينظرون إلى كما ينظرون إليك . إنني إن
 زبيلة وإن نسبي تداد إليه .

فقال شيبوب ضاحكاً :

— لست أألى كيف ينظرون إلى .

فقال عترة : لقد كدت أحسدك على نفسك يا شيبوب ،
 إنني ما زلت حيث كنت بعيداً عن سعادتي ، ألحها أمانى وهي
 نهري كما يهرب الجبان الذي يركب مهرأ سرباً .

لم يكن الرق هو الذي يحول بيني وبينها ، بل هو انظر يسترون

به ما فى نفوسهم من الكبرياء الضعيفة . ليس الرق سوى وهم
يرضى به الصغفاء ضعفهم ، فهم لا يجدون ما يميزون به أنفسهم
إلا أن يهبطوا بمثل إلى ما دونهم ، حتى يلوحوا فى الأعين أعظم
من عثرة .

فقال شيبوب وهو يتلأ كأه :

— أنت تحس الذل لأنك تحتاج إليهم . إن هذا الغل الذى
تضعه حول عنقك هو الذى يذلك وليس ما تحسبه من كبريائهم .
إن هذا الذى تسميه الحب أسميه أنا ارق والذل . فعجبا منك
إذ تقرى على دمه اليماء تسعها . لا تقوى على قيدك الذى
تقيدك به فتاة .

فدل عثرة وعري بجمع كأه :

— لست أعوذ يا شيبوب لأنك لا تحمل نفسى . وإن كان
لك قلب لا تحرك إلا كما يتحرك قلبى . أنت تخدع نفسك حتى
ترضى بما أنت فيه .

فقال شيبوب : إنما العبد من يستمد من الناس حويته .
إننى أعيش لنفسى ، ولذا غفرت لى هذا الناس لا . كذا أرى
منهم أحدا سواك أنت وأمى وإخوتى . أما سائر الأحياء فإننى

أمتهم وأخذهم وأخونهم ، ولو استطعت أن أفك بهم لما
ترددت لحظة . إننى أسرق أحياناً وما بى من حاجة إلى الذى
أسرقه ، وأكذب وأبس ما يدعو إلى الكذب . وما ذلك إلا
لأنى أمتع نفسى بأن أوقع بهم الغيظ وأسخر منهم . ولست أجد
عفة عن نساءهم ولا غضباً لأعراضهم ، ولولاك لكنت أطعن فى
الحرب فى ظهورهم . أما قلت لك إنك إن تجد منهم غير ما أجد
أما ؟ فإلى الذى يجشمك هذه المناعب فى طنب ما لا يجديك
معهم تفهماً .

فقال عنترة : هذا قضائى وليكن لك ما ترى . سأذهب إليها
لعل أنظر إلى وجهها ، وأعلى أجد السبع قد جف من مقلتيها . ثم
لن أزال هذا الرجل حتى أتلق كبريائه ، ولن أزال ناسه الأحق
حتى أهدهد غروره . سوف أنذل وسوف أبكى وسوف أقتحم
اللجج والبيران . سوف أخدم شبان وأرعى لها إبلها كما كنت
أرعى إبل شداد لى يرضوا بمقامى قريباً منها .
فقام شيبوب وأخذ كأسه فى يده ورفعها قائلاً :

— أحق ورب الكعبة ! أنهم لا يريدون وحق مائة إلا أن
يرموا بك فى المهالك ولا يروا لك وجهاً .

وأما أنا فاني إن أعدت هذه الكأس شيئاً . وهي عندي خير
 من عبلة وكل قويمها . أما أعرف كيف أحيا وكيف أنعم بضامى
 وشرائى ، وكيف أصل النساء ، وكيف أقصص الوحش . فلا أضلك
 تحرص بلا على أروم الهندى يصوره لك الخيال . اذهب كما
 شئت وألتمس ما شئت فاما أحب أن أكون معك وإن أتخلى
 عن صحتك . أملك تحبها لأنك تطلب علالة حياتك ، وأنت
 تجد لذتك فيما تأمل . وأما أنا فاني أجد لذتى فيما أذوق وأقرف .
 أنت تسعى وتتألم وأنا أحيا وأنعم .

ثم شرب كأسه وقال وهو يرتعش :

هات اسقى من خمرة بالكأس أو بالجرة
 شقراء مثل الدرة عاطرة كالزهرة
 بنت كريم حرة أودع فيها سره
 والليل يجنو بدره والبجم يرعى فخره
 اكل ايل نُكره اكل حى حفرة
 ما العيش إلا مرة

وكان عنترة ينظر إليه باسمًا حتى إذا ما انتهى من إنشاده قال

له : لقد كدت يا شيموب تفتننى .

قضى عنترة ليلالى فى سجنه يتوجع ، ولم تكن الجراح التى أصابته هى التى توجعه ، لأن حرح قلبه كان أشد ألماً . فقد أتى إلى العراق يطلب المهر الذى طلبه أبو عبلة من النوق العصافير ، التى كان الملك النعمان يملكها ، ولم تكن فى قبائل العرب قبيلة تعرفها .

كانت بيضاء كأنها وعول الجبال ، خفيفة كأنها الغزلان ، طيبة الألبان كالبقرة ، حلوة المنظر كالأما ، طيبة الاعم كأنها الحملان . وأبى مالك إلا أن يكون مهر عبلة من هذه النوق التى يحبسها النعمان فى مراعى الخيرة ، ولا يحرو على الاقتراب من حماها إلا مستئثس من الحياة .

وأتى عنترة يضرب فى الصحارى نحو العراق وصورة عبلة مدلة أمام عينيه عند كل ننية وعند كل مرقب . وما كان أحب إليه من تلك الحاضرة الجريئة التى اعتزم أن يخاضها ، لأنه كان يجد فيها مجالاً لمجد جديد يسره به إلى الحبيبة التى كان لا يرى فى الحياة شيئاً يستحق أن يحرص عليه إلا حبها . وكان فى أثناء سيره فى

تلك الصحارى الجاهمة يردد كلمات علة اتى قانتها له وهى تودعه أمام بيت أبيها فى ننى شيبان إذ قالت له : « سرف أنتفرك حتى تعود وإن طالت غيبتك » . وكان يستعيد حديثها فى ليلة الوداع وهى راضية باسمه تقول له « هكذا أراد أنى ، ولو كان لى الاختيار لما اخترت إلا ابن عمى » . كانت كلماتها كلها مسطرة على قلبه يدخرها كآمن الكسوز ، كما يدخر المقطوع فى الصحراء الماء فى الأحواض البراقة للمساء فى بطون الجبال ليعانى به حرور الهجير . وكانت نظراتها العاصفة إليه وهو يثب على فرسه (الأبجر) لا تزال تتابع عاتيه كأنهم فى الليلة انظلماء إذا أطل فى مهمه القفر على السطح الذى ضل السبيل فيه . كانت بسماتها ونظراته تتردد فى قلبه كأنها الأعانى التى تحدو سيره فى ذلك الطريق الوعر الطويل ، يقوى بها نفسه إذا أجهد آخر ، ريزنى بها روه إذا أمضه الجوع ، ويجمعها سمرد إذا شرب الحمر ، وحديثه إذا جالس إليه أخوه وصاحبه شيبوب .

ولكنه ذهب إلى العراق يطالب مطلقاً عسيراً ، لأنه أقدم على مراعى النعمان وأراد أن يسهق منها ما شاء من الإبل العاصير . فما هو إلا أن أحس الرعيان به حتى أرسلوا النذر إلى الملك

المظيم في الحيرة وفيما هو يضرب في عجاز الإبل مسرعاً نحو الصحراء أدركه الملك في كتيبة من الفرسان فأحاطوا به والنوق التي استاقها، وكانت معركة بين فارس نائرمستيش وجيش لجب من الشجعان. فلم يستطع إلا أن يقاتل مانق في يده سيف أورمع، ثم أثنخته الجراح وخر صريعاً، وحمل إلى الحيرة بين الموت والحياة. ورآه شيبوب يقاتل في وسط الحلقة الخيفة فلم يستطع أن يخلص إليه، فقد كان الموت يحول بينهما. ورأى السيوف تلعب والرماح تنقص في معركة هائلة، فلم يجد خيراً له من أن يندس بين الصخور يرقب القتال، حتى إذا ما رأى عنزة يخرج عن جواده زحف متوارياً بين الحجارة، حتى جعل التلال وراءه ثم قام وأطلق ساقيه للريح.

وتضى عنزة في السجن ليالى ما كان أطولها، وكان أشد ما أصابه في كل ما وقع به أنه خاب في أن يحوز مهر عبلة، وأنه قد حيل بينه وبينها في ذلك السجن القاتم الذي كان النور يدخل إليه متردداً من فرجات ضيقة بين قصبان الحديد.

فكان ينظر إلى النجوم اللامعة يناجها، ويرى صورة عبلة فيها، ويستعيد نظراتها وبساتها في لآلئها ويسمع أصداء صوت

عبلة العذب في مجواها، ويرسل على شعاعها تحيات يانس من الحياة. ثم طلبة النعمان بعد أن التأمت جروحه لكي يرى الرجل الذى جاء إليه وحده غازيا، وحمله النحس على أن يطلب الحال ويجرؤ على استراحة حماه. وأدخل عنقزة عليه مقيدا في سلاسله، وقد جلس حول الايوان شيوخ من قلب وشيان ينظرون إليه ويمجبون.

وكان الملك غاضبا يحاول أن يمسك نفسه حتى يسمع قوله قبل أن يوقع به العقاب، فانه لم يرمثل هذا الأسود رجلا.

وتأمله الدمان ساعة وهو صامت ثم قال له :

— من أنت أيها البائس ؟

فقال عنقزة ناظرا إليه هادئا :

— أنت ترانى أمام عينيك .

فسرت مهمة في الجلوس وصاح الملك :

— أسألك عن نفسك . أسألك عن قومك إن كان لك قوم .

وما أحسبك إلا عبداً أبقاً .

فقاطعه عنقزة قائلا :

— العبد غيرى !

قتال الملك وهو يحاول أن يمسك غضبه :

- أما تعرف ما فعلت ؟

فقال عنقرة : جئت الى حى النعمان لاستاق نوقه العصافير .

فقال النعمان فى دهشة :

— إنك امرؤ بين الحق والجنون .

فقال عنقرة ثابته : أنسمع منى هذرا ؟

فقال النعمان حائفاً :

— بل أرى أعجب من الحق والجنون . إنك رجل واحد

تأتى من أقصى الأرض لكى تسوق إبلى . أكنت تحسب أن

لن يرد كيدك أحد ؟ لأقطعن أعضائك ولأقذفن بك إلى حيث

ينبغي لملك أن يلقى .

فقال عنقرة مبادراً :

-- كمكف أبها الملك غضبك ، فاست تأمن مثلى أن يرد

عليك قولاً بمنله . لست أخشى وعيدك وأما فى يدك . وإنه ليحق

لى أن أعجب منك إذ ترانى فى يدك ثم تهددنى . ولو شئت

أن أرد عليك لكاء ، مجال القول متسعاً . فما كان ينبغي لملك

أن تأتى بى إلى مجلسك وتجمع هؤلاء الشيوخ حولك لكى تهددنى

بتقطيع أوصالى والثلة مجسمى . وايش ما يمنعنى من أن أركب
معك أوعر الوعر فى الخطاب .
فأردَّ وجه الملك وقال :

— لص جرىء :

فقال عنقرة فى دفعة : بل مغير أتى يطلب الغنيمة .
فقال النعمان :

— أأنت نأر عندى ؟

فقال عنقرة : بل جئت أطلب نوتك العصاير كما يطلب
الأسد صيداً ، أو كما يطلب بعض هؤلاء العرب إبل بعض
فى العزوات . فما أما أيها الملك وما أنت وما هؤلاء جميعاً سوى
عرب يترددون بين وديان نجد وتهامة وهضاب الدهناء واليمامة
وكلهم يسلب ويغزو . لست بالسارق أيها الملك إذا لم تكن
أنت سارقاً وإذا لم يكن هؤلاء جميعاً لصوماً .

فسرت غفمة عالية حول الإيوان وقال الملك فى غضب
مكتوم :

— أقصر عن ذلك لا أم لك ، وحدثنى إذا لم تكن لصاً .
أبعثك أحد على عينا ؟ أم استأجرك بعض أعدائى ليتحدث

الناس بمجرأتك فيغض من قدرى . قل واصدقنى ولك منى حياتك .
فقال عنقرة ساخراً :

— بل جئت إليك لأستاق إبلك لنفسى . وما كنت
لأحارب لأحد غيرى . وما كان مثلى ليدب إليك جاسوساً .
فصاح النعمان ساخراً .

— متلك ؟ ومن أنت إذا لم تكن أحد هؤلاء الصعاليك
الذين لا يهتمون إلى قميأة ؟ أو اهلك من هؤلاء الذين امظتهم
أقوامهم ليمروا من معرة جرائهم فلم نجد سبيلاً إلا اقتحام الممالك .
وإن فى وجهك الأسود لدلالة على صحة رأى . من أنت أيها
الأسود الكريه ؟
فقال عنقرة هادئاً :

— أما وقد ذكرت سوادى فاعلم أيها الملك ما يملوك فرعا .
ثم تضال فى نفسك واتكر مناة على أنك بحيرة من قتلى .
أنا عنقرة بن شداد .

فسرت ضجة فى الجميع وقال النعمان فى دفعة :
— عنقرة ؟

فقال عنقرة : نعم أنا عنقرة الذى تعرف . أنت تعرف من

أما ونسمع الكثير من خرى . أنا عنزة فاملاً قلبك غيظاً إن شئت .

قال النعمان إلى ظهر كرسيه وقال باسمياً في سخرية :
— لو صدقت لسرني أن أراك في القيود أمامي . إنك كمت
تفرع الصعاء وتقطع السبيل ، وكانت القبائل تضج من اعتدائك .
نعم لو صدقت لسرني أن أراك مقيداً أمامي ، فقد دفعت الغرور
إلى أن همت باستباحة حمى ملك العرب . وحق منة لو كنت
عنزة لقد سميت إلى هنا لتلقى عقوبتك .
فقال عنزة ضاحكاً :

— وهل على أمرىء من عار إذا أخذ أسيراً ؟ هل على من
عار إذا أحاط به جيشك وقادى إليك بعد أن جدت من
أبطالك من جدلت وشردت من شردت وطاعنت حتى لم يبق
في يدي سنان ولا تحتى فرس ؟
فقال النعمان في حنق :

— إنك تزعم أنك عنزة ومن لى أن أصدقك . إنك لا تقول
هذا إلا كدماً لأجعل لك عندي قدراً .
فقال عنزة ضاحكاً :

— وما الذى يحملنى على الكذب واتخاذ اسم عنترة شعاراً ؟
 إنما أعرف أن هذا الاسم لا يحمل لى إلا عداوتك وكرهاتك .
 لقد كنت أطمع فى عفوك لو كنت بعض صعاليك العرب بعد
 أن شهدت ما شهدت من بلائى فى حربك ، فقد كان ذلك
 يطعننى فى عفوك املك تتخذنى سائر الحياة من أعوانك .
 ولكنك تعلم أن عنترة لا يهب سيفه إلا لعبس ، ولست أطمع
 فى النجاة وأنا احبك بقولى فى إيوانك وبين شيوخ قومك .
 ثم امدفع كأنه ينشد قصيدا فرفع رأسه ورفع يديه مباهياً فقال :
 لكم كان قومى من ثارات عندك وعند حاتمك !
 ولكم وطشاً ملاطىء ! وكم أخذنا من غنائم البحرين والعراق !
 وكم أغرنا على قوافلك فى الحجيج ! وقد كنت أما فى صدر
 الكتائب أحوز العنائم رأيت الجموع .

فقال الملك عاصبا وسط مخب الغيظ من حوله .

— أتفخر على وتماهى بقتالى ؟ لقد كنت أطلبك أيها الشقى
 لأوقع بك عقابى . أتفخر على أيها الشقى فى مجلسى ؟
 قتال عنترة : انتى أذكر الحق منذ سألتنى . واست أخشى
 أن أقتل ، فكم قتلت من الشجعان ولم أشمر بخاجة ألم أو رحمة

في قوادى . لست أطمع في الحياة وأنا الذى يعرف هوانها .
فقال الملك وهو يمسك نفسه :

— لم أكن لأطيل معك الحديث لولا أننى عجبت منك
واردت أن أطلع على خبيثة أمرك . أليست عبس اليوم من
حملائى؟ فما مجيئك إذا لم يكن طلباً للفخر، حتى تملأ فك بأناك
غزوت النعمان ؟

فقال عنتره في هدوء :

— لا أيها الملك لم أرد بذلك غرا .

فقال النعمان :

— انك فتى خدعك الناس منذ أتادوا بك وتحدثوا عنك
ورددوا شعرك . فحملك زهوك على أن تسعى الى الأسد
في عرينه .

فضحك عنتره وأجاب :

— لكم سعيت إلى الأسود في عرائها . ولكنى أيها
الملك لا أطمح الى حديث الناس عنى فانه لم يجدى شيئاً .

فقال النعمان في مرارة :

— ألم يجدى حديث الناس شيئاً؟ ألم يلحقك أبوك بعبس

بفعل هذه الأحاديث ؟ ألم تكن لولا تلك الأحاديث
عبد شداد وابن زبيبة ؟
فقال عترة في دفعة :

— إن من يذكرك أمي لا يأمن أن أذكر أمه .
صادت الضممة الحاققة إلى الجمع حتى رفع النعمان يده
عابساً يهدى الناس ثم قال :
— لا بأس عليك يا عترة فأبها قلته منى . وما كان ينبغي لى
أر أقولها وحياتك فى يدي

وصمت حياءً ثم قال فى لين :
— قل لى يا عترة ميم أتيت إلى إذا لم ترد نحرأ ؟ فهل بيئت
قومك عداوتى فبعثوك لنتيرها ؟

فقال عترة : لا أبها الملك إن قومى لا يعرفون أين مكافى
وليس هم حرص إلا على مودتك .

فقال النعمان : إنك تحيرنى . فهل أنت مخبرى عن أمرك ؟
أم هو سر لا ينبغي لأحد أن يطلع عليه ؟

فقال عترة متردداً : أما وقد أتيت إلا أن نعرف الحق فأبى
لأضن عليك به . أبها الملك . فما أتيت إلا لأطاب مهرأ لابنة عمى .

فقال النعمان في اهتمام : شبلة ؟

فقال عنتره : نعم عبلة أيها الملك .

فقال النعمان باسم : ولم تجد مهرها إلا من إيلي ؟

فقال عنتره هادئاً : واني لى أن أجد العصافير إلا

في مسارحك ؟

فقال النعمان : وعلى رغم أنفي ؟

فقال عنتره : لم اعتد سؤالا .

فقال النعمان ساخرا : ولو طعنك أحد هؤلاء طعنة نفذت

من ظهرك ودقت عظام صلبك ؟

فقال عنتره هادئاً : ما كنت اذن سوى أحد من يقتلون

في الحروب .

فقال النعمان في سخرية : اما تخشى حزن عبلة ؟

فقال عنتره في غضب : لو غيرك قالها ؟

فقال النعمان : اجب ولا تحجب شيئا . لقد قلت في خطاى

ما لم يجرؤ احد على قوله، فما حرصك على رضائي ؟ قل ولا تحجب

شيئا .

فقال عنتره : لست اطلب سخطك وإن كنت لا اباليه .

فقال النعمان : إنما أردت ان اعرف مقدار حبك لها . لقد
تحدث الناس عنك وعنها حتى احببت ان اسمع منك حديثها .
فأطرق عنثرة حينئذ قال : أما إذ أردت أيها الملك ان
أحدثك عن عبلة فقلت اضن به عليك . ان اسمها ليحلولى اذا
سمعته حتى لأحدث نفسى به لأسمعه حاليا .

أيها أيها الملك أعز على من انقضى واحب من حوارحى .
ولو كانت حياى تدفع عن عيها دمة لجدت بها راضيا . ولو
اعترضنى اليران فى سبيل تلبية كلمة منها لاقهجتها . صورتها
لا تزال تؤنسى ، ونفم حديثها ما يزال يتردد فى أذنى . لا أعرف
خيرا إلا ما ترضاه ولا شرا إلا ما تخشاه او تأناه . ليس فى الحياة
جمال عدى إلا إذا كان فيه منها شبه ، ولو طويت لى الأرض
لما كان فيها شيء يكافى رضاها ، ولو طأطأت لى السماء حتى
تداولت نجومها لأمدىها إليها لوجدت ذلك دون قدرها .

فقال النعمان فى ارتياح :

إنك لتتحدث عنها حديثا عجبا . لقد سمعت شعرك واكن
فى حرارة قولك ما عرو وقع من الشعر .
فقال عنثرة فى حماسة : دذا أيها الملك ومنم اللمظ وليس

اللفظ سوى آلة ينقل بها الناس ما اعتادوا أن يحسوه في نفوسهم
من خسيس المعاني . إلا أن ما أحسه في نفسه لعبلة يضيق عنه
اللفظ ، فهو ظل حائل وصدى فاطر لا يصف حقيقة ما أحله لعبلة .

فقال النعمان في رقة : اذن فقد جئت تطلب مهرها .
فظهر عنتره إليه كأنه يريد أن يتبين ما يقصد بقوله وهل
عاد إلى انسخرية منه .

وأدرك النعمان ما يدور في نفسه . فقال ببادراً : أفتحب أن
تعود بالعصافير من باني ؟

فقال عنتره كأنه يحلم : إذن أنقيت لك أبد الدهر شاكراً .
فالتفت النعمان إلى رجل واقف عند رأسه وقال له :
— امض به يا أبا الحرث إلى بيتك وفك قيوده وعد به
أول شيء في الصباح .

والتفت إلى عنتره باسمها وقال :

— وإنك منذ اليوم يا عنتره ضيفي .

فظهر إليه عنتره في دهشة وبسط يديه حيناً ثم وصات
ثم صاح بصوت متهدج :
أيها الملك ! أيها الملك !

ثم طوى نفسه وأطرق وأدار وجهه وسار يسحب قبوده
ويجر أبا الحرث الموكل به من وراءه .

١٠

بقى عنتره فى الحيرة ستين لم يكن بحسب أنه سوف يقضيا
فيها ، ولقى عند السمان فى أثناها مكانة لم يكن يحلم أن الأقدار
تجرى بها ، وحاز من الفنى ما لم يكن يخطر بباله ، وبلغ من الحد
ما لم يبلغه أحد من سادة القبائل .

وأقام فى جوار صديقه العارس أنى الحرث صاحب النعمان ،
وقد أسس إليه منذ عاشره وكان يطرب إلى سماع شعره ، فلا يكاد
يخلو منه مجلسه إلا إذا سار فى كتيبة إلى غزوة من الغزوات ، فإذا
عاد لازمه فى غدواته وروحاته وفى أماسيه ولياليه . ولم تبخل
الأقدار على عنتره بالشرف الأعظم الذى كان لا يتاله إلا الأقداد
من أبطال العرب وأدباهم بأن تقرب من ملك العرس كسرى .
وكان عنتره بين حين وحين ينظر إلى خلفه ويذكر أيامه الخالية
كما ينظر الواقف فوق رأس الجبل إلى الوادى البعيد الذى يراه
دونه عند الأفق ، فيراه غائما عامحا يحيط به الصباب ولا تبدو منه

إلا أشباح ضئيلة تتحرك خافتة مثل أشباح الجن التي طالما ظهرت له أثناء تحواله في ليل الصحراء . ولكنه كان يرى في ثنايا ذلك الماضي الجاهم صورة حبيبة لم تستطع الأيام أن تمحوها . صورة عيلة التي وهب لها قلبه وجعل فيها مناط أمه . وكان لا يفتأ يتذكر كيف رحل من وطنه يطلب مهرها العالي ، وكيف دفعه ذلك الحب اليأس إلى اقتحام المهالك حتى حرقته المقادير فأقام بالحيرة هذه المدة الطويلة ، وضرب في أفق العراق وفارس ، وحل في قصور مدائن كسرى ، وقاتل مع أقوام لم يره من قبل ، وحارب أقواما آخرين لم يكن بينه وبينهم ثار ، فحارب في سبيل النعمان تارة وفي سبيل كسرى تارة كأنه قد أصبح وحشاً صنعته سفك الدماء . وكان كلما تأمل ذلك الماضي أحس شيئاً في صدره يشبه الثورة والحق ، فانها الأقدار أقحمته في عواصفها العنيفة وهو مرغم لا يكاد يستطيع منها إنقلاباً .

و بلغت تلك الثورة بعد حين مبلغاً جعلته يقبل على الخراج له يخرق في كؤوسها همومه ، أولعله يذهل عن ذكريات هذه السنوات بما فيها من مجد وما فيها من رق . فما كان مقامه عند النعمان ومحاربتة أعداءه بأقل في نظره من الرق وإن كان رقاً تحيط به هالة كاذبة

من زخرف الحياة . وكان كلما فرغ إلى ذكريات حياته الأولى بدا له رقه الأول أهون قيداً وأخف ذلاً . كان من قبل يفضب لأنه كان عبداً أشداد ، ولكنه كان لا يحارب إلا لقوه لكي يحمي حريمهم ويدفع الأذى عنهم ، أو لكي يفرز بالانتماء ويشتفي بإدراك النار من أعدائهم . كان يحارب من أجل عبلة وقوم عبلة لا من أجل هذه الأموال التي كان النعمان يصدقها عليه وهذا المجد الذي كان يلقي إليه أجراً لسيمه .

وأخذ يحس المال يارب إلى نفسه تبيثاً فشيئاً من المقام في الحيرة ، ووجد أن ذكرى أرض الشربة والعلم السعدي تعاود في فترات متقاربة ، فلا يكاد يمر به يوم بغير أن تتحرك فيه سجونته عند الغدوات وعند الريحات . نأذا خلا إلى نفسه جاست به وساورنه حتى جعلت الحيرة تصغر في عينيه ، وحتى هانت عنده تلك الأموال والجواهر التي ازدحم بها منزله ، وخيل إليه أن هذه الإبل التي تمد بالآلوف ، وتلك النوق المصافير تثقله وتقعده عن العودة إلى موطن معادته . وزاد قلقه إلى فراق الحيرة فاستأذن النعمان مرة بعد مرة في السفر ، ولكنه كان يدافعه ويتمسك به حتى بلغ الضيق مبلغ منه التبرم ، فأقبل على التحريب منها كل

ليلة ما يئس به ضجره . وأتفق صديقه أبو الحرث عليه من ذلك الضيق فشنع له عند ذلك حتى أذن له بالعودة إلى وطنه فسارع عترة إلى الاستعداد وانتظر بقاب واجف يوم الرحيل .

وأعد له أبو الحرث مائدة حافلة في ليلة الوداع ، اجتمع فيها شيوخ الخيرة وفرسانها ، وكانت مائدة مساحتها في غلابة ورقصها وخمرها . وشارك عترة بإشادته من شعره فيها ، وأخذت الفتيت تغنى بقطع من غزله في عتبة ، حتى منى أكثراتهيل ، ولم يبق في المجلس إلا صاحب الدار وعترة . قال أبو الحرث :

— من يدرى يا عترة أين تدفع بن الأقدار خدًا . فسجمل
آخر عهدنا بالاجتماع حديقًا طويلاً . وجلسا يتسامران ويشربان
وقد مضى من الليل أكثره ، وهدأت ضجة الخيرة في سكون عميق .

وقال أبو الحرث وهو يتلأ كأسين :

— ألك في كأس أخرى يا عترة؟ إنني لا أراها أحسن عضداً .
فقال عترة — لا بأس على إذا شاركك في أخرى .
فصحك أبو الحرث وهو يبادر إلى كأسه فيجبرع منها جرعة

كبيرة وقال : إنك لم تشرب الليلة كما دتلك يا عنتره . وكأني بك لم تطرب .

قال عنتره وهو يرشف رشمة من كأسه : إنني الليلة لا أريد إغراق شجوني .

قال أبو الحرث : أما أنا فقد راهنت على زقين من زقاق خاقين . وأحب لورا هنت على آخرين .

فقال عنتره : انت تعلم أنها تصدعني ، وأن رأسي لا يلبث معها أن يدور .

فقال أبو الحرث وهو يقرب له الفاكهة : ألا تذوق من هذا التفاح يا عنتره ؟ إنه من جنى حلب وهو يكسر شرة هذه الحمر .

ثم ملأ لنفسه كأساً جديدة ورمى فيها بعض زهر النارج وأطال شمها ، ثم جرع منها جرعة طويلة وقال لعنتره :

— أراك تشم التعاحة وتتأملها معجباً كأنك تناجيها .

فقال عنتره وهو يقلب التعاحة في كفه :

— إن فيها ما يهر نفسي .

ثم أخذ يغمغم في صوت خافت وأبو الحرث ينصت إليه . ثم أنشد أبو الحرث :

أُتِيتُكَ مِنْ عَيْلِ الْخِيَالِ الْمَبْرَجِ فَعَلَمْتُ فِيهِ لَاهِجَ يَتَوَهَّجُ
وَنَظَرَ إِلَى عَنُقَةٍ قَائِلًا أَتَرَانِي حَفَلْتُ هَذَا الْبَيْتَ يَا عَنُقَةَ ؟
فَنَظَرَ إِلَيْهِ عَنُقَةٌ فِي ارْتِيَاكِ وَطَالَ نَاسِمًا .

وَإِنَّكَ إِشَاعِرٌ يَا أُمَّا الْحَرْثُ . بِدَثْ تَحْفَظُ الشَّعْرَ مِنْ دَ تَسْمَعُهُ .
وَإِنْ دَفَعَ يَنْشُدُ سَائِرَ الْقَصِيدَةِ حَتَّى قَالَ :

بَنَ أَصَحَّتِ الْأَطْلَالُ مَهَا خَوَالِي كَانَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنَ الْعَشِّ وَمَهْجِ
فَصَاحَ أَبُو الْحَرْثِ مُتَمَعًا :

قَدْ طَلَمَّا مَازَحْتُ فِيهَا عَيْبِلَةً وَمَازَحْنِي فِيهَا الْفَزَالُ الْمَفْجِ
أَيْسَ هَذَا هُوَ الْبَيْتُ ؟ ثُمَّ نَحَثُ وَمَا لَ عَلَى أُرَيْكَتِهِ فِي فَتْوَرِ الْحَمْرِ .
فَقَالَ عَنُقَتُهُ ضَاحِكًا :

— مَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ تَكُونِ رَاوِثِي .

ثُمَّ جَعَلَ يَنْتَقِلُ مِنْ قَصِيدَةٍ إِلَى أُخْرَى وَنُتِيَ الْحَرْثُ يَقْطَعُهُ
بِالْبَيْتِ بَعْدَ الْبَيْتِ مِنْهَا حَتَّى مَضَى اللَّيْلُ وَصَمِعَ عَنُقَتُهُ صَوْتًا
فَقَالَ لِحَاةٍ :

— أَمَا تَسْمَعُ يَا نَا الْخُرْتُ حَرَكَةَ الْتَمُودِ ؟

فَقَامَ أَبُو الْحَرْثِ إِلَى طَلْفِ الْبُهْوِ وَنَظَرَ إِلَى الْبَرَاكِ الْعَسِيحِ الَّذِي
تَحْتَهُ وَقَالَ :

— صدقت يا عنقرة . هذا الفجر قد بدا . وحق مناة إن هذا
الرحيل يوحش ديارنا .
فقال عنقرة وهو يقوم :
— لئن شكرتك يا أبا الحرث فليست بقادر على أن أوفيك
حقك .

ثم فتح ذراعيه وعانقه عناقاً طويلاً .
فقال أبو الحرث : لئن كان في الأيام مدة لكأت أمنيته
أن أراك .
فأجاب عنتره : ولئن تفرقنا فلقد عرفت فيك كيف يكون
الصديق .
ثم صاحفه ومضى حارجاً وخرج أبو الحرث يشيعه صامتاً إلى
المربد في القضاء الفسيح خارج البيت .

١١

سار عنقرة في ركبه العظيم يضرب في الصحراء عائداً إلى أرض
الشرّة والعلم السعدى ، حتى قطع فيافي اليمامة ونجد ودخل الى
أرض الحجاز . ولكنه كان كلما اقترب من وطنه خالجه الشكوك

والخاوف ، وأحس كأن الشملة المتقدمة في صدره تضمحل وتخبو .
 مكان بين حين وآخر يسأل نفسه عما هناك في تلك الأرض التي
 كان يتحرق لكى يعود إليها . وهل اذا هو عاد إليها وجد عبلة
 لا تزال مقيمة على عهدا ؟ وكان أحياناً يبلغ منه الشك ان يسأل
 نفسه أهو حقاً يحبها كما خيل اليه أم هي لاجاة انهم تزعم له انه
 لا يزال يحبها .

وكان أحياناً يتمثل نفسه كأنه لقيها وحديثها فلا يدري كيف
 يكون حديثه وحديثها بعد أن فارقتها تلك السنين ، وبعد أن عاشر
 من عاشر من أقوام لا يشهونها . لكم رأى من النساء وكم استمع
 الى غناء القينات البارعات الحسن من بنات العجم والسكرد
 والأرمن ، وكم اعتاد فى حديثهن أن يترفق وأن يعبث وأن يمجن .
 فهل كان الحديث السهل الذى اعتاده من قبل مع عبلة يواتيه
 اذا لقيها أم يمتنع عليه ؟ وهل يستطيع اذا رآها أن يتذال لها كما
 كان يفعل ويسمى نفسه عبدا ، ويجد متعة فى كلمة يسمعا أو
 بسمة عطف يضىء قلبه بها ؟

ولم يخل قلبه كذلك من التلاق كلما تأمل قومه بعد أن غاب
 عنهم تلك السنين . فهل يعود ليجد عمارة بن زياد ومالكاه

وعمرأ انه ويجد أباه واخوته جميعاً كما تركهم ؟ وهل يستطيع
أن يعود إلى معاشرتهم وهم الذين عرف كبرياءهم وعنادهم ؟ وهل
يرضى أن يلقوه بما كانوا يلقونه به وهو عندهم عنقرة التى من
عليه أبوه شداد ذات يوم بحريته وتفصل عليه بأن نسبه إليهم ؟
كان كلما اقترب من وطنه ثارت تلك الشكوك فى نفسه حتى
كاد يحس أنه قد صار غريباً عن قومه ، وأنه قد أطلع وهماً
كاذباً عند ما اعتزم أن يعود إليهم ، ومفارقة قوم آخرين كان
يعيش بينهم سيداً ، ويسمر فى نواديهم ، ويعاملهم ويخاطبهم
ويقاتل معهم وهو عنقرة بطل العرب . فهؤلاء الذين عرفهم فى
الحيرة وفى الدائن لم يقولوا له يوماً يان زبيبة ، ولم يعيروه يوماً
بسواد لونه ولا بهجته نسبه . بل كانوا يعدونه سيداً كريماً لأنه
كان سيداً كريماً ، وقدموه وأعلوا مكانه لأنه كان جديراً بالتقديم
والمكانة العالية . فما الذى حمله على أن يصيق بالمقام فيهم لكى
يعود إلى هؤلاء الذين نشأ فيهم عبداً رقيقاً ، وقضى معهم الحياة فى
نضال وكعاح حتى خرج عنهم أحياناً يصرب فى الأرض لكى
يطلب مهر عبلة من عرين الأسد ؟ وقد حدثته نفسه مراراً أنه قد
أخطأ وأن الأولى به أن يعود أدراجه إلى حيث يُقيم عزيزاً ،

ويفالب هذا القلب الذى طالما أذله وعذبه . ولكنه مع ذلك سار فى طريقه يدفعه دافع غامض كأن الأقدار هى التى كانت تسيره نحو غاية لا يدركها .

ولما صار فى أرض الشربة بعد طول السير رأى أن يعرج على الوادى الرملى الذى طالما شهدوه وهو يرعى إبل شداد ، ذلك الوادى الذى كان مسرح صباه وشبابه .

وخطر له ذكر تيبوب الذى أحبه وصاحبه وكان فى كل مكان معه ، فتارة كان جاسوسه وتارة كان رسوله ، وحينما كان خادمه وحينما كان صميره ، حتى فارقه فى العراق بعد أن رأى الفرسان يحيطون به ويعطمنونه ويصرعونه عن فرسه الأجير . ولم يدر أ كان ذلك الأخ لا يزال حيا يرعى إبل سادته أم قد مضى فى سبيله كما مضى عن الدنيا من قبله ويمضى من بعده . ذلك الأخ الذى عاش ما عاش عبداً مرحاً يتم فى رقه ولا يعبأ إلا بطعامه وشرابه وصيده ونسائه ، ولا يرى الحياة إلا مهزلة لا تستحق شيئاً سوى أن يسخر منها ويلهو فيها ثم يمضى عنها مرحاً اذا حان أجله .

ولما اقتربت القافلة من الوادى رأى عترة على البعد متخصفاً

على روبة فحقق قلبه وعادت اليه صور الماضي حية كأنه لم يفارق تلك الأرض إلا منذ ليلة . وصوب بصره الى الشخص فجعل يتأمله ، وأحس شيئاً في قلبه يتحرك اليه ، فهمز حواده وأمرع نحوه وهو لا يزال ينظر الى وقتته متكئاً على رجليه . فلما اقترب من الروبة رأى شيبوب ينظر اليه ولا يعرفه . فلما صار منه على مسمع ناداه باسمه ، فما كاد شيبوب يسمع صوته حتى وثب نازلاً في قمزات واسعة وهو مشمر عن ساقيه الطويلتين فاتحاً فيه الواسع في بسمة تكشف عن أسنانه البيضاء . وترجل عنقرة ووجد نفسه بين ذراعيه وهو يقل وجهه وكتفيه باكياً ويصيح : عنقرة ! فقال عنقرة وهو يصمه في حرارة :

— أنت هذا يا شيبوب مرة أخرى . إنك لأول من أرى ، وإنك لأول من أحبت أن أرى .

فقال شيبوب بصوت مختق :
— وأنت هذا أراك حياً . أنت هذا حي السك بيدي وأضلك إلى صدري وأحس دفء أعضائك .

ثم أرسله من ذراعيه ونظر اليه في دهشة وقال :
— إني لا أكاد أصدق عيني .

وجعل يصعد فيه بصرمه ويصوبه فقال عنترة وهو يأخذ بذراعاه:

— أترى فى ما تنكر يا شيبوب؟

فقال شيبوب فى هرة فرح:

— إن السرور يعقل لسانى .

فقال عنترة وهو يسير به بعيداً عن الطريق:

لقد افتقدتك يا شيبوب واشتقت إلى حديثك . فل بنا إلى

هذه الربة فإن بى شوقاً إلى حديثك .

فقال شيبوب وهو ينظر نحو القافلة العظيمة التى كانت تسير

مبطئة بحوها :

— ألم أرك صريعاً وقد أحاط بك العرسان يطعنونك ؟

أهذه القافلة لك ؟

فضحك عنترة وقال : أكل قصتك يا شيبوب ، رأيت

الفرسان يحيطون بى ، ثم أطلقت ساقيك للريح تطلب النجاة .

فقال شيبوب : وهل كنت لأغنى عنك شيئاً ؟ انى فكرت

فى مثل لمح البصر ان حير ما أفعله أن أهرب وأبجو بنفسى .

فقال عنترة ضاحكاً : لكى تأتى إلى هنا فتنتظرنى . إن

الحياة حلوة يا شيبوب أليس هذا ما حملك على الهرب ؟

فأجاب شيبوب جادا : قلت أعود إلى قومك فأناك إليهم ،
فما كل يوم يقتل مثل عنقرة .

فقال عنقرة : ونعيتني إليهم ؟

فأجاب شيبوب : وقضيا شهراً نبكى . لكم نكت ربيبة .
إسها لا تزال تبكى ولا تصدق أنك هلكت . وما رالت ترم
أنك عائد إليها وأما أ كذبها .

فقال عنقرة في رقة : مسكينة أمي . ما أحب إلى أن ألقاها .
وأمسك لحظة وهو مطرق ثم قال :

— وهؤلاء يا شيبوب . كيف حال هؤلاء ؟

فرد شيبوب في امتعاض : أتقصد عبلة ؟

فقال عنقرة في اهتمام : كيف هي يا شيبوب ؟

فقال شيبوب مختصراً : هي امرأة .

وكانت القافلة قد بلغت موضعها ، فصاح عنقرة بأمر بالترحول ،
ثم الممت إلى أخيه فقال له .

— تقول هي امرأة ؟

فقال شيبوب : يجتمع العتبات إليها كل يوم يرقصن ويعنين

قبل زفافها . لقد عرفت النساء وما هي إلا امرأة . هن يبيكين يوماً ثم يرقصن ويغنين سائر الحياة .

فقال عنصرة وهو يغمض عينيه : أهو عمارة ؟ أهو ابن زياد ؟

فقال شيبوب : إنك لا تزال تهواها .

فقال عنصرة في حزن : دع ذلك يا شيبوب ونشئ هل

هو عمارة ؟

فقال شيبوب : إنه هو . ذهب إلى أبيها بعد أن سمع أنك قتلت .

فصاح عنصرة : ومن قالها ويحك ؟

فقال شيبوب في خجل : ألم أرك صريعاً ؟ ألم أر

الرماح تتخطفك ؟

فأدار عنصرة وجهه في حنق واستمر شيبوب قائلاً :

فترض عمارة على مالك ألف ناقة مبرأً اسلة . وهل كان

أبوها المتكبر ليأبى ألف ناقة ؟ فرسى به مسرعاً ولم يسأل إذا

كانت من العصفير أم هي من النسور .

فأطرق عنصرة صامتاً وقال شيبوب ناظراً إلى التمايلة العظيمة

التي تغطي القضا .

— ولكن كيف بلغت هذا ؟

فارتح عنقرة إلى تغيير الحديث وقال في حزن :

— تسأل الأيام كيف تعبت بها ؟ أنت رأيتى فى حلقة

نمرسان يضمنونى ثم أسرت وسجنت . ثم جىء بى إلى مجلس
النعمان ليقتلنى . ثم خرجت من المجلس أقرب الناس إليه .

فتبسّم شيبوب وقال : نيتى كنت معك .

فقال عنقرة : ومن يدرى يا شيبوب لعل الأقدار كانت تجعل

أجلنا معاً .

فقال شيبوب ضاحكاً : أما وحق مناة لو كنت معك لكان

لى مع القوم شأن .

فأجاب عنقرة ناسماً : ولكم لم تبق معى والشكر لمناة .

فنظر إليه شيبوب فى إعجاب وقال : لشد ما تغيرت يا أحمى !

فأجاب عنقرة كأنه يتحدث نفسه : لقد تقلب بى الدهر

وهزهنى . كم حروب شهدتها وكم بلاد رأيتها . قضيت هذه

السنوات لاهياً عن نفسى مكنت لا أعرف إلا الحروب والدماء ،

وكنت أسمع أصدااء الحديد كأننى أسمع غناء العذارى . كنت

مثل الوحش الضارى أحب شىء عندى منظر الدماء . لم

أحارب طلباً لثأر ، ولا دهاعاً عن حرم بل كنت أشعر بالغيظ
 يملأ قلبي كما رأيت دوى قتالاً . فكنت أقتل وقتل وقتل
 ولا تنفي مع ذلك غيظي . ولكن حدثني أنت يا شيبوب عن
 قومك . كم غزوتهم وكم غزيتهم ؟ وكم غنمتهم وكم غنم الأعداء منهم ؟
 أما ذكرتم عترة يوماً ؟ أما افتقدتهم مكاناً في ليلة ظلماء ؟
 فقال شيبوب في حرارة :

ما زلت أذكرك في صباحي ومساءلي . وكلما تذكرت كيف
 رأيتك صريعاً وثبتت . إن الأمل كأن ناراً تحرق قدمي . وكثيراً
 ما ندمت على أنني لم أبق معك حتى تقتل جميعاً . كانت الحية
 وحدي كثيفة يا عترة . وهما أنت ذا تعود إلى مرة أخرى .
 ونكسك تغيرت .

رُحِرق عترة صامتة كأنه غلب في فكره واستتر شيبوب
 قتل :

— لقد ما تغيرت يا عترة حتى كأنك أنت نخي . ولولم
 أكن أعرفك وأعرف كل جارحة فيك لكذبت نفسي .
 ولكني أعرف كل صبع من يدك . فهذا جرح يوم عبدعب
 وهذا جرح يوم الهرير ، وهذا ألقطع صلبك يوم عراعر ، وهذا

الذى كاد يودى بك يوم غزوة طيء ، وهذه طعنة عمرو بن ود
العامري . وتلك طعنة مسحل بن طراق الكندي . أتذكر ذلك
الكندي انتهى حارثته من أجل عبة ؟

فرمى عنقرة رأسه في شيء من الخنق وقال :
— ولكن ما جدوى حديثك هذا ؟ إني أسألك عن هؤلاء .
فقال شيبوب متودداً :

— إني أذكر هذه الآثار لأنها تذكرني بأنك أخي ، ولولاها
لما صدقت عيني . إني أذكر أخاف من النظر إليك وأتسر
هيبة في حديثك .

فلم يملك عنقرة إلا أن يضحك في حزنه وقال :
— ومع ذلك فأنت لا تحدثني إلا عن نفسك وتغنى .
فقال شيبوب :

— وحق مناة ما رأتك امرأة إلا فحمت أن تكون لها
بعلاً . إسمع نصيحتي فأما أكثر الناس علماً هن . لقد خرجت
من عبس وأنت عنقرة . ولكنك تعود اليوم امرأة آخر غير
عنقرة . لقد كنت أحب لك أخي . كنت رفيقاً وكنت
عنيفاً ، وكنت ذليلاً وكنت متكبراً ، وكنت قوياً وكنت

ضعيفاً . ولكنى كنت دائماً أحبك ولا أنكسر إذا نظرت
إليك عاباً .

وأما اليوم فأنت رجل آخر . ومنذ رأيتك وددت لو صرت
لك عبداً . فكيف هذه النسوة إذا رأين كل هذه القافلة التى
تسير وراءك ؟ وكيف هن إذا رأين هذه الريشة التى فوق
عمامتك وتلك اللآلىء العريقة التى تتلألأ من تحتها ؟

فصحت عنقرة وقام يسير فى الوادى وتيبوب يسير وراءه
وقال : أما إنك يا تيبوب لا تزال كما كنت حبيبتاً . ألا تذكر
كيف كنت توقد غيظى ثم تطفئه ، وكيف ترسل الحقد فى قلبى
ثم تسله كما تسل الشوك من الأديم ؟ أنت لا تزال كما كنت .
فقال تيبوب وقد اتسعت بسمته :

— أضغنى يا ابن أمى ولا تطع كبرياءك . إنك وحق مائة
حدير بأن تكون ملكاً . واسوف أخطبك لك هند ابنة زهير
سيد علبس .

فصحت عنقرة وقال . حدثنى عن عملة تيبوب فإن لى
ظماً إلى الحديث عنها .

فقال تيبوب : تلك التى زعمت أنها لك وأنت تنتظرها وإن

تظنون الانتظار بها آخر الدهر . إننى أريد أن أقطع قلبها كما
قطعت قلبك .

فقال عنتره فى اهتمام : أما حزنت ؟ أما بككت ؟ أما شقت
على ثوبها عند ما نمتنى إليها ؟

فقال شيبوب : نعم بككت . ثم حزنت حيناً . ولكنها أطاعت
عقلها بعد ذلك ورضيت بأن زياد . وموعد زفافها يوم عروبة .
ثم جعل يعد الأيام على أصابعه وقال : بعد ثلاثة .

فصاح عنتره : تقول إنهم رضيت ؟

فقال شيبوب : أما قلت لك إن أباهما قد رضى ؟ سوف
تحرق قلبها وقلب مالك بن قراد . سوف أزوجك من هند ابنة
زهير . وإن يستطيع أخوها قيس أن يأناها عليك . . . أخوها
قيس ، فإن أباهما زهيراً قتل .

فقال عنتره حزيناً : هند . قيس . زهير . هذه كلها أسماء
أسمع تمظها ، ولكن عبلة قد تزوجت . إنك قلت قد تزوجت .
أليس هذا ما قلت ؟

فقال شيبوب : قلت ذلك .

فقال عنتره : إذن فهل قدر على أن أعود إلى عبس لى

أرى عرسها وأنا بعيداً كل قلبي غيظاً؟ إذن لقد قدر على أن
أقطع هذه الصحارى في سبيلى إليها لكي أمر بعرسها آخر الأمر
مكدوداً مثل المسافرين المسكين الذى يريد الحج إلى الكعبة إذا
مر في طريقه الضويلة بقصر البخيل الذى يحجى وليلة للعطاء ،
فيمنظر إلى الأضواء المنبثثة من القصر ويسمع أصوات الغناء
ويسيل لعابه من الجوع إذا شم رائحة السواء ، وهو يسأل بصوت
خافت أن يرسلوا إليه طعاماً فلا يسمع أحد صوته .

ثم أنطق حيناً ومضى شيبوب في حديثه عن حوادث تلك
السين التى كان فيها عنقرة بعيداً . ورفع عنقرة رأسه بعد
حين وقال :

— أنت ملأت قلبي حزنًا . وأحس كأن هذا القصر يضيق
بى . أقلت آباء أن عبلة كانت تغنى ؟

فقال شيبوب : لم أقل لك إنها تغنى . هن الفتيت يذنين لها
ويجتمعن للرقص عنده . ونسكنها امرأة كما قلت لك وتحب
أن تكون زوجة رجل من سادة قومه . وسوف تنظر إليك في
أسف إذا رأتك وتأك كل قلبها غيظاً . سوف تحزن عليك إذا
رأتك تدخل إلى عبس بهذه القافلة كلها .

فقال عنتره في حرن : أمسك ويحك يا شيبوب . فان الجرح لا يزال دامياً . كمت حسسته قد اندمل وكنت أسأل نفسي كيف أكون إذا عدت إلى أرضي . وها أنت ذا تعيدني إلى عسى القديمة فحمة كأن تلك السنوات قد طويت كلها في يوم .
فأنا اليوم كما كنت لم يتغير في قلبي شيء .

فقال شيبوب : وأما أنا فان قلبي ممتلئ حقداً كما كان . فهل تريد أن تعود إلى هؤلاء فتتذال لهم وتطلب منهم منافعهم وهم يسمونك ابن زبينة ؟

فقال عنتره حزينا : است أدري كيف ألقى هؤلاء ولا كيف يلقي هؤلاء . أننى نسيتهم حيناً وخيلاً إلى أبى لن أحس لهم حليجه في نفسى . واست أدري إذا عدت إليهم كيف يكون عيشي فيهم .

وأمسك عن الكلام لحظة وهو مطرق ثم رفع رأسه وعيناه مغرورتان بالدمع وقال :

— ابن أتعرض لعارة ولن أتقدم إلى مالك أطلبه بوعده .
ست أعرف أحداً من هؤلاء . فاعلم أنا أعرف عبلة . ولن أرمى أن تكون لى امرأة إلا إذا أحببت هى أن تكون زوجى .

فصاح شيبوب : أو ترمى بها ؟

فقال عنترة : قل لي يا شيبوب كيف هي ؟ متى رأيتها ؟
 هل ما زالت تطعم كاشمس وتزهر كالقمر ويفوح نسيمها
 كالزهرة ؟ قل لي أما سمعتها تتحدث عني ؟ أما قالت زينة إنها
 تحدثت عني ؟ لقد حدثت نفسي مراراً أن أصرب وأن أطعن
 وأن أقتل حتى أفوز بها قسراً . ولكنني اليوم يا شيبوب حزين
 لا أريد ضرباً ولا طعنًا . أما أحبا ولكنها لا أرضى أن أفوز بها
 إلا إذا كان ذلك عن سبيل قلها .

فصاحت شيبوب وقال : ما أهون هذا ! اطلع عليها بهذه
 الإبل ولسوف تفوز بقلها .

فقام عنترة وأمسك بذراع أخيه وقال له جادا :

— اسمع يا شيبوب وأطعني . ولا تردد في حرف مما أقول .
 عدني أن تطعم بغير حرف تقوله يا شيبوب .

فنظر إليه شيبوب في دهشة ثم قال بعد لحظة : مستجدي
 مطيعاً .

فقال عنترة جاداً : انت أحب أن أعود إلى عس إلا كما
 خرجت منها . إني لا أحرص على غني ، فإني أقدر على أن أجد

قوتى بسهمى وقومى وإن أحرص على جاه ولا نسب ، فانى قد
رأيت من الحياة ما جعلنى أسمو فوق كل هذا . قد كنت أغضب
لأشياء أراها اليوم لا تفصنى وكنت أحرص على أشياء أخرى
لا أجدها اليوم جدرة محرمى .

كنت أحتد على الناس عند ما كنت لا أعرف لى مكاناً
بينهم ، ولكنى اليوم لا أبالى من يكون أنى ولا من تكون أمى
ولا أين أحل بين الناس . هو شىء واحد لا أجد فى الحياة عنه
عوضاً . وذلك حب عبة . وانكى حبه ، هى لا لكى أمكها .
أحما لكى يكون قلبها لى .

ثم التفت إلى القافلة العظيمة وأتار اليها قنلا :

— أترى هذه القفلة التى تملأ البطاح ؟ اذهب بها الآن
إلى منازل عبس ، وسأبقى أنا هادى تغدو إلى بعد أن تفرع
مها . اذهب بها ثم ناد المساكين الذين يسرون هنا ورانى ،
وأولئك الذين كانوا من قبل يحاربون معى ، والصعاليك الذين
كانوا يلوذون لى . ففرق كل هذه الأحوال فيهم حتى لا تبقى منها
شيئاً . وهذه الإبل التى تراها بين سوداء وبيضاء . فرق هذه
بين الصفاء حتى لا تبقى منهم واحداً بغير عطاء . فإذا بقى منها

شيء فأنحره، وألقى بها في القفر لتكون وليمة لوحش السباع .
وهذه النوق العصفير التي أتيت بها لتكون مهرأ نخيلة .
إذهب بها إلى مالك بن قراد وقل له هي هدية إليه لينحرها
يوم زفافها ، فيطعم منها قوم عمارة بن زياد ومن يحب من أحياء
العرب يشهدوا عرسه . ثم أحل هذه الأحوال التي تراها على
الإبل السوداء فقد أودعت فيها تحف من طرائف المداين لتكون
هدية نخيلة يوم جلوتها ، خذ هذه واذهب بها إليها وأبلغها أنني
كنت وعدتها يوماً في غضبي أن أهدى إليها هدية عند زفافها .
قل لها هذه هديتي بدل التي وعدتها . قم منذ الساعة ولا
تنطق بحرف .

ثم ذهب إلى القافلة فأنزل بعض الأحمال ونحأها إلى جانب
قائلا :

— أما هذا فنصيبى . هذه خمر متقة أجعلها نصيبى ، لعل
أقدر على أن أغرق فيها همومى .

وحاول شيبوب أن يتكلم فأشار إليه عنزة بيده يأمره السكوت
قائلا :

— لقد وعدتني أن تطيع يا شيبوب . إذهب فاقبل ما أمرتك

به . فاذا أرادت عبلة أن تختارنى بعد ذلك وجدتني كما خرجت
من عبس يوم خرجت وحيداً .
أقلت إن موعد زفافها بعد ثلاثة .
فقال شيبوب حزيناً : نعم يوم عرونة .
فقال عنتره : سَنتفركُ هنا . نى أن يمضى عرونة .
ثم وثب على فرسه مركبه وأغمد في جنبه حداثركاب، فانطلق
به في الوادى
ووقف شيبوب حيناً ينظر في عتقه في ذهسة . ثم مررته
ونادى الركب أن يتجهز للسير .

١٣

أمضى عنتره الأيام الثلاثة يصرب في فجاج الصحراء يصيد
طعامه ، ويعكف في الليل على زقاق الحر المعلقة . وكان في أثناء
ذلك موزعاً بين موجات عنيفة من أشجان متصادمة متعارضة .
فحيناً يشور به موج من الحزن والجوى حتى يرى القصد يصيق
به ويود لو لقي عدواً حانقاً فيسد طعنة إلى قلبه فيخلطه من
الحياة ، وحيناً تملؤه موجه أخرى من الغضب فيهم أن يذهب إلى

قومه فيسوى مع خصومه الحساب عسيراً لما أصابته قديماً وما
 أصابته حديثاً . وتعتريه بين هذه وتلك حالات هدوء ساجم
 واجم فيحس كأن فيه قد انصرف عن كل شيء ، وأنه سلا عبلة
 فلم يبق في عنده ما يحمله على غضب ولا على حزن . وكان
 في أثناء ذلك كله ينتقل بين شعاب الجبال وثناياها حيث كان
 ينتقل من قبل وهو يرعى إبل أبيه تداد ، يغنى وينشد الشعر
 ويحدث نفسه عن عبلة خائياً . فكان كلما عرج على موضع ثارث
 به ذكر يانه فيقضى في تأملها حيناً كأنه في حلم ثم يمضي عنه وهو
 يغتم ببعض أتعار مما قاله عنده فيما مضى .

فخرج على الصغور المساء التي طالما توقل فيها بعد نزول المطر ،
 وطالما شرب من ماء البارد المتجمع في فجواتها ، واضع فيه على
 صورة وجهه وهو حزين لأنه لا يشبه وجوه العتيان الذين كانوا
 يسرون في عس معجبين بلمهم السوداء . وعرج على بطون
 النوديان التي تستشق ضيها الأصفر بعد أن جف وغطى سطحها
 العشب والشوك والصبير والحنظل . وكان يميل بين وقت وآخر على
 زهرة من العرار أو الخزامى أو الأقحوان ، فيتأمل لونها وشكلها ويشم
 رائحتها كأنه يلقي صديقاً عزيزاً بعد أن فرقت الأيام بينهما حيناً .

وكان في تلك الجولات يقف أحياناً فيرفع ذراعيه ويملاً صدره من الهواء ، كما كان يمتوّه وهو فتى ، بعد أن قضى تلك السنوات الماضية في عواصم الريف لا يكاد يعرف كيف يملأ صدره من الهواء .

فاذا تذكر أيامه التي قضاها في الخيرة ولدائن وتذكر تلك القفلة العظيمة التي عاد بها تحمل الجوهر والحلى والحلل والتحف من طرائف فارس والروم وأذربيجان ، ثم تذكر أنه بعث بكل ذلك مع أخيه تيبوب ليعرفه في عبس بين الصغفاء والصعاليك ، أحس ارتياحاً كأنما قد تخلص من ثقل كان يجثم فوق صدره ، ودب إليه شعور عجيب بأنه قد استعاد روحه الذي كان قد فارقه منذ دخل أرض العراق .

وعند ذلك كانت تلك السنوات التي قضاها بعيداً عن أرضه تلوح له كأنها سنوات سجن ضيق شامت فيها نفسه حتى كاد ينكرها ، وتغير فيها قلبه حتى كاد يصير إلى قلب وحش ضار . وخيل إليه أنه قد عاد إلى حيث يستطيع أن يعرف النور والظلمة وحيث يرى النجوم الساطعة والبدر المتألق الزاهر ، والشمس التي تبسم حيناً وتحرق حيناً ، والهواء الذي يعصف حيناً

ويهب في وداعة حيناً . هنا كان يستطيع أن يأكل من ، صيده
ويصادق صديقه ويمادى عدوه ، فإذا ذهب بعد إلى غزوة ذهب
إليها مع قومه لكي يغم معهم غنيمة ، وإذا حارب عدوا متغيرا
حاربه ليدافع عن حرم عيس وعن شرفها . فلم يكن بعد
ايحارب كالوحش الصارى ، ولا يجد مكافأته في سفك الدماء
والاستكثار من الغنى . لقد عاد إلى أرضه حيث يستطيع أن
يستعيد حياته التي كان يحس فيها معنى الحياة .

كان يحزن وينضب ويأمل ويتش ، ولكمه كان
في كل ذلك يجد في الحياة علالة تجعله يحرص عليها .
ولم يخل قلبه في كل تلك الجولات لحظة من ذكر عبلة ، ولكمه
كان كلما ذكرها عجب أشد العجب من التغير الذي أصاب
حبه لها . كان حبا ثائرا دفعه من قبل إلى قتال كل من
حدثته نفسه بزواجها ، فأصبح حبا عجيبا فيه عتب على عبلة
وحدها ، ولا يابلى بعد ذلك أحدا . فلم يحس وخرة غضب
عندما تصور أن عمارة سوف يزف اليه ، ولا عندما عرف أن
أباها قد رضى تزويجها ، ولا عندما قال له شيوخ إن العتبات
يجتمعن عندها يرقص ويتنن في انتظار يوم جلوتها . وكأما

كان يشعر في قرارة قلبه اطمئناناً الى أنها لن تتزوج ولن ترضى بأن تزف إلى عمارة وأنها سوف تعود اليه هو معتذرة بالأكية . وكلم تذكر أنه بعث اليها هداياه وأنه بعث إلى أبيها مهرها ناحيه نوع من لا يتبع . كأنه قد أدرك منها ومن أبيها ذراً كان له عندهم . فإذا ما حضرته أنه قد يعود فيجدها قد صارت زوج عمارة لم يدحه يأس ، بل وجد في نفسه قدعة ن يقضى سائر الحياة عتبا به حتى صورتها في حزن وكبرياء .

ومضى اليوم الثالث واتفق يوم عروبة الموعود ، وكان قد عاد إلى الربوة المشرقة على الحى من بعيد ، وهبط الظلام فجأة بعد أن غربت الشمس ونسكن القمر لم يابث أن أضاء الفضاء . فأخذ عنقرة رقاً من الخرو ومصلة من لحم غزال مشوى بقى عنده ، ثم صعد إلى أعلى الربوة وجلس يشرب وهو يمل السهل لمتد تحت عيبيه . رآه إلى ناحية الحلة التي فيها ثوبه وقد مدت على المعد في ضوء القمر عامضة كأنها ظلال من سحابة داكنة ، تمر تحت الشمس ، وجعل يتأمل النيران الموقدة بين البيوت أعلاه يرى عند شعب الجواء نيراناً مشبوبة تدل على ليلة الزفاف .

ولكنه لم يتبين على البعد من شعب الجواء سوى ضلال
 عامصة في ضوء القمر الخفت تلوح مثل منظر الأحلام . هذه
 هي البقعة التي تقيم فيها عبدة وأهلها تدوله مثل نقطة ضئيلة
 في الليل ، وهي التي حركته ودفعته وأثارتها . هي التي أحزنته
 حيناً وبعثت في صدره الآمل حيناً ، وهي التي خرج من
 أجلها إلى العالم المسيح الذي كاد يسلبه روحه ، ثم هي التي عاد
 من أجلها يصرب في حنج الصحراء ، ويقطع قلبه قلقاً ويقضى
 لياليه ساهداً يقلب البصر في الآفاق خاشياً أن تلوح له فيها نيران
 نجيء بليئة الزفاف .

وبقي عنبرة يشرب ويقلب نضره في المضاء حتى طلع الفجر
 وغنى إغفاءة طويلة آفاق منها على صوت يماديه والشمس ترسل
 شعاعها عليه من وراء التلال .

وأصاح بأذنه إلى الصوت فعرفه ونهض مسرعاً يتب فوق الرمال
 حتى وجد نفسه بين حصان أمه ريبة ، وكان شيبوب وقد
 إلى جوار بعيرها يريد أن يبيحه . وأرسلت زبيبة ابنها من بين
 ذراعيها ورغردت وهي تنظر إليه في ابتهاج ، ثم أتمت نفسها
 عليه مرة أخرى قبله وهو يمسح على رأسها بعطف وقتلها :

— إنك لأول من كنت أحب أن أرى اليوم يا أماء .

فقال في صوت مخنوق :

— لقد أحسست منذ أيام أنك قريب مني . كمت أعرف

دائماً أنت عائد إلى ولم أصدق ما قال هذا .

وأشارت إلى شيبوب بنظرة لائمة ، وكان واقفا حياها يبسم ابتسامته الواسعة . ولم يجد عنقرة في دفعة اللقاء ما جعله يتفرغ لتأمل ملابس أمه وأخيه ، إذ كانا يلبسان مجموعة من الثياب عجيبية اختارها كل منهما من بين أحمال القافلة طاعة لهواه . فكانت زيببة في حلة حمراء ، وجلت في قدمها خفا من القرو الأسود ، وتمنطقت بمنطقة فضية تزعتها من حائل سيف ، وتقلدت ببعض قلائد من العقيق والمرجان ، ولبست أساور من الكهرمان والعضة تتدلى فضفاضة عند راسها .

وكان شيبوب يلبس مثلها ثيابا عجيبية من عمامة ذات ريشة ولآلئ ، إلى ثوب محلى بالقصب إلى سيف مرصع بالجواهر ، ولم يبخل على رمح به بعض الحلية من عقود المرجان وشرائط الحرير .

وتبسم عنقره عندما تنبه إلى ملبسهما بعد حين ولكنه لم يجد متسعاً للحديث فقد كانت عبس تتحرك نحوه بكل من هناك من أهلها .

ونظر عنتره إلى القادمين وتهلل وجهه فرحا ، والتفت إلى
 شيبوب وقال له هامسا : أكان زفافها ؟
 — فأشار شيبوب إليه إشارة مرحة قائلا :
 — سأحدثك حديثاً طويلاً .

وجاء القوم جماعة بعد جماعة يحيون عنتره ، وكان فتیان عبس
 فوق خيوفهم يتلأون البطحاء الممتدة في أسفل الربوة ، يهتفون
 باسم عنتره ويتراکضون ويلوحون بالرماح والسيوف . وجاء في
 صدرهم قيس بن زهير وآل جذيمة سادة عبس ، ثم أقبل أبو شداد
 وأخوته وجاء السيوخ من آل رباد ، حتى عمارة نفسه أقبل عليه
 يحياه . وكان عنتره يلقيهم باسماء ويحييهم في هدوء وهم ينظرون إياه
 في عجب أن يكون ذلك هو عنتره . وكان يلقي إلى كل فرد تحية
 هادئة مع كلمة عطف ومودة ، وكان يحس سعادة كبرى كلما رأى
 على قومه بعض هداياه . وكان النساء والامتنات يقبلن عليه
 ضاحكات يرحبن به ويرفعن بأصابعهن ما حول محورهن من
 العقود المتلاثلة التي أهداها إليهن ، أو يلوحن له بما صمن ليظهرن
 الأساور التي تحليها مما فرق شيبوب بينهما .
 ثم أقبل مالك بن قراد في أهله ، ثم جاءت أخته مروة ابنة شداد

وإلى جانبها عبلة تمشى على استحياء ، فرآها مقبلة تنظر من بعيد إليه بيمينها الواسعتين لا تطرف ، وتكاد تتمثر في مشيتها . وكان يبدو على وجهها ما يشبه أن يكون ابتسامة . ولكنها كانت مترددة فيها شيء من الارتباك وشيء من التلوف .

وحيا عنترة اخته مروة ، سجد عاتقها ، وهمت في نفسه ثورة كادت تنفلت من حكمه ، وفكر في مثل ملح البصر ما هو قاتل لعبلة بعدها . ايلقاهما في جعد صامت لم يقرعها بتحية من اللوء قاسية ؟ ومرت عليه لحضة قصيرة طويلة امتلأت فيه نفسه حفيظة وحنقا . وكاد ينطق ولكنه سمع اخته مروة تصحك وتقول له في عشا الذي اعتاده مها :

— لقد حسبت أنك سوف تخطف عبلة منذ تراها .

فمض إلى عبلة فرآها تمد إليه يدها ، ورأى في نظرتها وحركتها وتعبير وجهها ما سل منه الخلق فجأة ، فأقبل عليها يحببها في ابتسامة تتم عما كان في قلبه من الألم والعتاب . وما كاد يأخذ يدها مصاحفاً حتى وجد أنه يقاوم دفعا قويا لا يقدر على صده . ووجد قلبه الذي خيل اليه في بعض تردد شجبه أنه قد غمض واسهم عليه مازال كما عرفه قديما . فهذه عبلة

التي كانت تهزه وهي مازالت تهزه، وهذه عينها التي كانت تسحره
ما زالت تبعث إليه فتتها، وهذه نظراتها التي كانت تعبر له عن
أدق المعاني ما زالت فصيحة في تعبيرها وتبيينها، وهذه يدها تمتد
إليه كما كانت تمتد إليه في شعره لمسها أسمى السعادة، وهذا صوتها
العذب الذي طالما غنت به اشعاره، ومازلت به شفاف قلبه سبعة
وكبرياء. هذا صوتها الذي طالما نادته به فخيّل إليه أن المجد هو
الذي يناديه، قد عاد إليه وطرق أذنيه. وهي ذى عبلة مرة أخرى
تقول له :

— عنثرة مرحباً !

وهم بغير تمكيد أن يرفع يدها إلى شفتيه، وكأنها أحست بهذه
الحركة الدقيقة وأدركت بوجودها ما في نفسه فتقبضت يدها في ارتباك
وحاولت أن تجد غطاء من اللفظ تتوارى به من أعين قومها الذين
وقفوا جميعاً ينظرون إليها وإلى عنثرة، ولكنها عجزت أن تجد
نقطة، فأغضت طرفها وغمغت بمض العناظ تحية مضطربة، وخيّل
إليها أن تلك اللحظة القصيدة الخاطفة التي وقعت فيها حياله قد
امتدت فصارت دهرًا. فلوت رأسها تريد أن تمسح بغيرها من
يتزاحون على تحية عنثرة ولم يجد عنثرة من اللفظ ما يستطيع به

أن يعبر عما أراد أن يقوله سوى أن قال بنير وعى :
— سيدتى ! ثم أرسل يدها . فصاحت مروءة ضاحكة مرة
أخرى قائلة فى خبث :

— أما سمعت قوله ؟ عترة عبد عبلة .

فانسجرت ضحكة من الحاضرين حولها . ونظرت إليها عبلة
فى ارتباك ، وأغضت واحمر وجهها ، ولكن سحابة الوجوم
انقشعت عند ذلك وأطلق عترة يقول لأخته فى مرح :

— إنك أيتها الأخت الحبيبة تذكرينى بأيام سعيدة . أيام
كان عبثك الخبيث يغيظنى .

فقلت : أما يغيظك اليوم يا عترة ؟

ثم اتجهت إلى عبلة فى خفة وقالت :

— ولكنه يغيظها . انظر كيف يظهر على وجهها ما تحمل
من الكراهة لى . ما هذا اللقاء العاتر يا عبلة ؟ أما كنت بالأمس
تبكين وتقولين لى : متى أراه يامروءة ؟

هاهو ذا دونك فتعلقى برقبته .

فعاد الصحك إلى الجميع وأحسن عترة أن كل ما داخله من
الغضب والعتب قد تبدد فى لحظة ، وأقبل على الذين حوله يرد

تحياتهم ولكنه كان لا يرى في الوجوه سوى صورة عبلة .
ولا يسمع من اللفظ إلا صدى صوتها .



وغربت شمس ذلك اليوم مرة أخرى كما غربت سائر الأيام ،
وكانت النيران توقد عند شعب الجواء وفي حلة عبس ، واصداء
الغناء تتردد بين الخيام من كل جانب بشعر عنتره التي قاله في
الحنين وهو بعيد .

واجتمع فتیان عبس على الخيل في الفضاء الرحب حول الحلة
يتطاردون ويتراقصون فوق الجياد ، بعضهم واقف على ظهرها
وبعضهم يتقلب على جنوبها ويدور من تحت بطونها ، وخرج
عنتره راكباً وكانت عبلة على الجواد أمامه وهو واقف خلفها
على ظهر الجواد شاهراً سيفه يلعب في ضوء النيران الموقدة ، وركض
جواده بها في وسط حلقة الفتیان وهو ينشد :

أرض الشرّبة تربها كالعنبر ونسيمها يسرى بمسك أذفر
يا عبل كم من غمرة ناشرتها بمتقف صلب القوائم أسمر
فأنتيتها والشمس في كبد السما والقوم بين مقدّم ومؤخّر
وكانت الأصدا تتردد في الفضاء من إشاد الفتیان بشعر عنتره

أنا في الحرب العوان غير مجهول المكان
 أينما نادى المنادى في دجى النقع يرانى
 ولما انتهى الحفل الصاخب إلى مطلع الفجر، ركب عنترة وزوجه
 عبلة إلى السراشق العظيم الذى أقامه شيبوب لهما فى أقصى الحلة،
 ذلك السراشق الذى أهداه إليه كسرى ومازالت القبائل تتحدث
 عنه كأنه المدينة إذا أقيمت قوائمه . وكانت جوابه محلاة بنقوش
 الذهب، ودعائمه ملبسة بصفائح الفضة . فإذا أضاءت فيه المصابيح
 فى الليل تلالأت أنوارها فوق فصوص الجوهر المنشرة فى جوانبه .
 وسار شيبوب وراءهما يشيخهما حتى دخلا إلى السراشق فقال
 ينادى عنترة :

— أما كنت تريد أن أحدثك حديثاً طويلاً ؟
 فنظر عنترة إليه باسمحاً ، ثم التفت إلى عبلة وأمسك بذراعها
 ناظراً إلى عينيها وقال :

— لا بأس عليك يا شيبوب فأبى أحب سماع الحديث منها .
 ثم ضمها بين ذراعه فلبدت فى صدره ، وامت شيبوب عينيها
 مغنماً ببعض ألقاظ مهمة ومضى عهما يمسح دموع سرور جالت
 فى عينيها .

